

تأصيل علم السنن الربانية

راشد سعيد شهوان *

Abstract:

This research studies the comprehensive theory of the laws of God which exist in the world. It defines the theory, its impotency, it kinds, its characteristics, and the fields which are related to it. It also asks the people to deal and concern with the theory of the laws of God, and to tale it out from the life and from the Holy Qura'n and the sunnah.

ملخص

يحاول هذا البحث أن يقدم نظرية متكاملة في تأصيل علم السنن الربانية ، يتناول فيها مفهوم السنن الربانية ، وأهمية هذا العلم ، وأنواع السنن ، والضوابط والأسس التي من خلالها تستنبط ، كما يحاول أن يستجلي منهج القرآن والسنة في معالجة أنواع السنن الكونية والإنسانية والتشريعية والتاريخية وبيان الأساليب والتوجيهات الدالة على استكشافها ، ومن ثم إبراز بعض الآيات القرآنية وما صح من الأحاديث النبوية وفق ارتباطاتها ونسقتها بهذه السنن . كما يتناول البحث الحديث عن خصائص السنن . كما يحاول البحث أن يحدد المجالات والميادين التي تتحرك وتتفاعل في نطاقها السنن ، ويصل في النهاية إلى بعض النتائج والتوصيات ، ويهدف البحث من وراء هذا كله إلى إحياء فقه السنن الربانية ، ومحاولة الاستفادة من الثروة القرآنية والنبوية ، وما اشتملا عليه من كنوز في هذا الحقل ، كما يهدف إلى إعادة الرواية الإسلامية لتصوره ، كما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وفهم الصحابة والسلف الصالح ، بعيداً عن عوامل الإعاقة والهدم والتأويلات الفاسدة والخرائط العقائدية المظلمة والمصطلحات الغربية ، التي حجبت حقائق القرآن وتذوق معانيه عن الناس ، وأبعدتهم عن الانفعال بروحه وصفاء حكمته ، مما أفقد هذا الفقه جذوته وإشعاعاته وحيويته وفاعليته في أذهان المسلمين .

كما يدعو هذا البحث إلى التوجه صوب فقه السنن الربانية بالقدر الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع .

تعريف السنن الكونية

السنة في اللغة :

السنن : جمع سنة ، والسنة اسم مرة من الفعل سن ، وللفعل سن معان كثيرة في المعاجم والقواميس العربية ، قال صاحب القاموس المحيط : سن الشيء : صوره ، وسن الطريقة : سار فيها ، وتسنتن : أخذ بالسنة وعمل بها (1) . والسنة : الطريقة والسيرة حميدة كانت أو ذميمة (2) . ويشهد لهذا المعنى اللغوي قول الرسول ﷺ : من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .. (3) .

وقال الكسائي : السنة معناها الدوام ، قالوا : سننت الماء إذا واليت في صبه (4) . وقال ابن تيمية : السنة هي العادة في الأشياء المتماثلة (5) ، وتابعه في ذلك تلميذه ابن القيم (6) . قال صاحب الصحاح : السنة : الأمة (7) ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ (8) ، وقال الألويسي : المراد بالسنن الأمم (9) ، وقال عطاء : السنن الشرائع والأديان التي نسخت (10) .

وسنة الله : حكمته في خليقته ، وسنة النبي ﷺ ما ينسب إليه من قول أو فعل أو تقرير .
والسنة في الشرع العمل المحمود في الدين مما ليس فرضاً ولا واجباً (11) .
والسنن : جريان الشيء واطراده في سهولة ويسر ، ومنه سننت الماء إذا أرسلته إرسالاً (12) .
وخلاصة القول ، إن مدار لفظ السنن على أربعة وجوه وهي : السننُ ، والسننُ ، والسننُ ، والسننُ .
كما أن خلاصة معاني هذه الوجوه على أربعة معان :

أولها : مطلق الطريق خيراً كانت أم شراً .
ثانيها : الطريقة المحمودة .

ثالثها : جريان الشيء واطراده ودوامه في سهولة ويسر .
رابعها : العادة في الأشياء المتماثلة .

وأقرب المعاني إلى موضوع السنن الذي نحن بصدده ؛ المعنيين الثالث والرابع ، وهو ما اتجه إليه ابن فارس والكسائي وابن تيمية وتلميذه ابن القيم .

مفهوم السنن الربانية (13) وضوابطها

(1) انظر : القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، فصل العين باب النون 238/4 دار الجيل ، بيروت .

(2) مختار الصحاح ، أبو بكر الرازي ص132 مكتبة لبنان 1986 .

(3) رواه مسلم 2059/4 ح 1017 ، العلم ، باب من سن سنة حسنة .

(4) انظر : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، الشوكاني ص29 طبعة أولى .

(5) انظر : الفتاوي 19/13 ، 20 نشر رئاسة إدارة البحوث ، الرياض .

(6) انظر : شفاء العليل ، لابن القيم ص420 ، دار التراث القاهرة .

(7) انظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل الجوهري 2139/5 طبعة 1402 هـ .

(8) سورة آل عمران من الآية 137 .

(9) انظر : روح المعاني ، محمود الألويسي 65/4 دار إحياء التراث العربي بيروت .

(10) المرجع السابق 65/4 .

(11) انظر : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية 456/1 الطبعة الثانية القاهرة .

(12) انظر : معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون 61/3 القاهرة .

لقد حظي مفهوم السنن وتفسير معناها في التراث الإسلامي بكثير من المعاني ، نتيجة اختلاف الحقول والتخصصات والمباحث التي تتصل بها من زاوية أو أخرى ، وبسبب شبكة العلاقات والتداخل بين علوم المقاصد والغايات وعلوم الوسائل والأدوات في منظومة المعرفة الإسلامية المشتركة . فهناك معنى للسنة في زمن الرسول ﷺ ، ومعنى لها في زمن الخلفاء الراشدين ، ومعنى في زمن التابعين ، ومعنى عند الأصوليين ، وآخر عند الفقهاء ، ومفهوم لها عند أهل الدعوة والحسبة ، ومفهوم عند علماء العقيدة ، وآخر عن علماء التفسير .

والذي يهمننا من هذه المفاهيم ما تعنيه كلمة (السنة) في لغتنا وأدبياتنا وفكرنا وثقافتنا وتصوراتنا الإسلامية المعاصرة ، حيث تشير إلى معنى (السنة الربانية) والتي يغلب عليها (الجانب الإلهي) . وذلك بخلاف مفهوم السنة في المعاني السابقة والتي يلاحظ فيها تغليب (الجانب النبوي) أو السنة في الشرع ، أو سنن الزوائد عند الفقهاء ، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة المذكورة في التراث الفكري الإسلامي ، التي لا يتسع المقام لذكرها .

وقد نجد بعض الإشارات لمعنى السنة بالمعنى الثقافي عند بعض علمائنا السابقين من أمثال أبي حامد الغزالي وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخرى لابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، نأخذ من ذلك مثلاً لصيق المقام ، يقول ابن القيم : " فسنته سبحانه عاداته المعلومة في أولياته وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم ، وإهانتهم أولئك وإذلالهم ... " (14) .
ومع هذا فإن قضية فقه السنن ومسائلها لم تلق حقها في الدراسة من القدامى ، اللهم إلا بعض إشارات كما أسلفت .

وقد أخذ مفهوم السنة بالمعنى الثقافي يتنامى في العصر الحاضر ، نظراً لما آلت إليه أوضاع الأمة الإسلامية من الضعف والتفكك وتكالب الأمم عليها ، ونظراً لظهور تخصص علمي جديد في الدراسات الجامعية هو الثقافة الإسلامية (15) ، الذي يتميز بدراسة موضوعات علمية محددة تتعلق بالمستجدات والتحديات ، فعمل على إظهار وتوضيح وتأصيل كثير من المفاهيم والقضايا والمسائل الجديدة المتعلقة بالإسلام ، وعلاج كثير من الشبهات ونقدها ...

إلا أن أول من أكثر من ذكر السنن ، وتحدث عن ضرورة دراستها وإدراكها ، في مقالاته وتفسيره ، هو الشيخ محمد عبده ، فقال : " فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه ، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن ... " (16) ، كما صرح في كثير من كتاباته بأهمية السنن والنواميس وضرورة السير وفقها ، وبين أنها من

(13) مفهوم الربوبية : معناه الاعتقاد بأن الله وحده خالق الخلق ومدبر أمرهم : (أي أنه الرب الخالق الملك المدبر لجميع الأمور) قال تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (مریم: من الآية65) والأمثلة كثيرة

...

مفهوم الألوهية : معناه : أن الله وحده هو الجدير بالمحبة والطاعة والعبادة والانقياد (أ) أنه الإله الخالق وكل معبود سواه باطل (قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص:1-2) .

إذا علمنا هذا الفرق بين مفهوم الربوبية ومفهوم الألوهية ، فإن تسمية السنن الربانية أقرب والصق بمفهوم السنن وبمتعلقات هذا المفهوم وتقسيماته من تسمية السنن الإلهية ، فقد يؤمن الإنسان بوجود اله وأنه مدبر هذا الكون وما يجري فيه من سنن ، لكنه قد يعرض عن عبادته ، والخضوع لشرعه ، والرسد دعت الأمم لعبادةالسنن الإلهية أثر من آثار السنن الربانية ، وهي تدخل في مفهوم السنن التشريعية التي تعتبر جزءاً من السنن الربانية ، حسب ما سنفصل القول فيه عند بيان أقسام السنن وأنواعها .

(14) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحمة والتعليل ص420 ، دار التراث القاهرة .

(15) قسم في كلية الشريعة بالرياض جامعة الإمام ، وقسم في جامعة الأزهر ، وقسم في جامعة أم درمان باسم (الثقافة والدعوة الإسلامية) .

(16) تفسير المنار : محمد رشيد رضا 139/4 ، دار المعرفة ، بيروت .

أسباب الاتساق والنجاح والسعادة ، وذكر أن السنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشئون وتترتب عليها الآثار⁽¹⁷⁾ .

وقد شرح الأستاذ محمد رشيد رضا صاحب المنار كثيراً من كلام أستاذه في هذا المجال ، وذكر تعريفاً ثميناً للسنة فقال : " فالسنن هي النظام الذي جرى عليه أمر الأمم ، وأن ما يقع للناس في كل زمان وفي كل مكان من الوجود في شئون اجتماعهم وحياتهم مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل " (18) .

كما أشار إلى نماذج من السنن في مواضع كثيرة من تفسيره وبين أهميتها وأثرها في حياة المسلمين⁽¹⁹⁾ .

كما أشار سيد قطب -رحمه الله- إلى السنن وذكر أنها " النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة " ، وبين أن ما حدث منها يمكن أن يحدث مرة أخرى وفق سنن جارية لا وفق معجزات خارقة ، وبين أنه بإمكان كل إنسان أن يستفيد من رصد السنن الربانية ، ويوظفها توظيفاً علمياً في مختلف المجالات ، إذا وجهها توجيهاً صحيحاً وتعامل معها ببصيرة وتدبر ، وكان لديه قدرة على الاستنباط والربط والاستنتاج⁽²⁰⁾ .

ومن الدراسات المعاصرة التي تناولت موضوع السنن أو السنة بهذا المعنى :

- ◆ (سنن الله في المجتمع من خلال القرآن) / محمد صادق عرجون .
- ◆ (السنن التاريخية في القرآن الكريم) / محمد باقر الصدر .
- ◆ (مشكلات الحضارة) / مالك بن نبي .
- ◆ (السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد) / د. عبد الكريم زيدان .
- ◆ (السنن الإلهية في النفس البشرية) / عمر أحمد عمر .
- ◆ (الإسلام وحركة التاريخ) / أنور الجندي .
- ◆ (أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين) / عبد الله التليدي .
- ◆ (التفسير الإسلامي للتاريخ) / د. عماد الدين خليل .
- ◆ مجموعة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) / جودت سعيد .
- ◆ (عوامل فساد الأمم كما تصورها سورة الأعراف) / فايز صالح الخطيب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية أصول الدين-الأزهر .
- ◆ (فقه التَّحضر الإسلامي) / عبد المجيد عمر النجار .
- ◆ (حول التفسير الإسلامي للتاريخ) / محمد قطب .
- ◆ (فقه التاريخ) / د. عبد الحليم عويس .
- ◆ (السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك) / شريف صالح الخطيب ، رسالة دكتوراة ، جامعة أم القرى ، فرع العقيدة .

(17) انظر : الأعمال الكاملة للشيخ الإمام محمد عبيد ، تحقيق د. محمد عمارة 302/3 .

(18) تفسير المنار 141/4 .

(19) راجع : تفسير المنار 500/7 .

(20) بتصرف وصياغة ، انظر : في ظلال القرآن ، 479/10 .

◆ (السنن الربانية في التصور الإسلامي) / راشد سعيد شهوان ، رسالة دكتوراه ، جامعة الإمام ، كلية الشريعة ، قسم الثقافة الإسلامية 1990م .

◆ (سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها) / محمد هيشور ، رسالة ماجستير بكلية آداب عين شمس ، منشورة 1996م .

ومن خلال تلك الإشارات والتعريفات والدراسات السابقة لمفهوم السنن ، نلاحظ أن علماءنا المتقدمين تناولوا مفهوم السنة من الجانب التاريخي ، وذلك طبقاً لتوارد معنى السنن أو السنة في القرآن الكريم ، إلا أنهم لم يخصصوها بالدراسة المستقلة ، وإنما كانوا يعرضون لها بصورة جزئية من خلال بعض المواقف في القرآن الكريم ، أن بعضاً من علمائنا في العصر الحاضر حاولوا تعريف السنة باعتبارها منهجاً وقوانين ومعادلات ربانية ونواميس عامة تحكم حركة الكون والإنسان والحياة والتاريخ والاجتماع البشري .

غير أن معظم الدراسات المعاصرة لموضوع السنن الربانية تناولت السنن الإلهية ، بمعنى الدين أو الإيمان وأثرهما في المجتمعات ، فجاءت غالبية هذه الدراسات تطبيقية أفقية أكثر منها تشخيصية تأصيلية ، وبعضها ركز على نوع معين من السنن الإلهية ، وبسط البحث في تعريفاته وتطبيقاته ، ولم يتطرق إلى بقية السنن الأخرى ، والبعض الآخر مر بالمسألة مروراً سريعاً ، وبعضها جاء على شكل مقالات يعالج فيها أسباب تخلف المسلمين .

غير أن الجديد الذي أصبو إليه من هذه الدراسة أن تظهر نظرية متكاملة في علم السنن تجلي مفهومه وتوضح حقائقه وتبين أهميته وتحدد خصائصه وأنواعه وتقسيماته ومجالاته ومبادئه ، وتوضح الضوابط والأسس التي من خلالها تستنبط السنن من القرآن الكريم ، وترسم المنهجية المنضبطة لدراسة هذه السنن والتعامل معها بفاعلية وواقعية ، لاستخدامها في مختلف التطبيقات العلمية والعملية .

وخلاصة الأمر ، فإنه يمكن تعريف السنن الربانية العامة بأنها : آيات الله تعالى (وقوانينه) في كونه وخلقهِ ، وعاداتهِ⁽²¹⁾ في سالف زمنه ، ومنهجه التشريعي القائم في عبادهِ ، على مقتضى مشيئته وحكمته وعدله⁽²²⁾ .

توضيح بعض الأمور الأساسية في تعريفنا للسنن الربانية

المقصود بآيات الله -تعالى- في كونه : أي قوانينه ونظمه ومعادلاته التي يسير وفقها الكون وهي قوانين ومعادلات مطردة قابلة للكشف ، يمكن فهمها وفكها والتعامل معها ، وليست مغلقة مسدودة أو على درجة من الصعوبة الطبيعية أو التعقيد والانغلاق والغموض التي يعجز الإنسان عن اكتشافها واستخدامها للإعمار والإبداع والقيام بأعباء الاستخلاف المطلوب . فكل ما في هذا الكون من أشياء بصفاتها وتركيبها الجغرافي والفيزيائي والكيميائي والحيوي .. قد هيئت تهيئة خاصة وسخرت وذلك لكي يمارس الإنسان دوره ويتعامل معها ، ويتمكن من الانتفاع منها ، ولو لم تكن كذلك لما استطاع الإنسان بإمكان عقله وإمكان حسه أن يستثمر ما فيه ، وأن يصل إلى شيء من كشفه أو الاستفادة منه على الإطلاق .

(21) يرى البعض أن استعمال كلمة عادات الله لا تليق بالذات الإلهية باعتبار أن العادة شيء ثبت بعد أن لم يكن بالتكرار ، أو باعتبار أن العادة طبيعية ثابتة . والواقع أن الصفات إذا أثبتت لله تكون توقيفية تليق بالله تعالى دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل .

(22) السنن الربانية في التصور الإسلامي . راشد شهوان ص . رسالة دكتوراه في كلية الشريعة بالرياض قسم الثقافة الإسلامية 1990م .

فالعلاقة بين هذه القوانين الكونية وبين الإنسان (علاقة صلوحية) قائمة على معرفة الأسباب والمسببات ، ومن هذه السنن والقوانين ما هو وهبي ومنها ما هو كسبي ، ومنها ما يتعلق بعالم الغيب ومنها ما يتعلق بعالم الشهادة، ومن هذه السنن والقوانين ما هو خاضع لقانون الجبر والتسيير ، وفق إرادة الخالق وحكمته ، ولا دخل ولا خيار للإنسان فيها ، ومنها سنن إرادية ، خاضعة لقانون التخسير ، مذلة للإنسان ، وهي ضمن قدراته وإرادته ، وفي نطاق حريته واختياره يستفيد منها بما يؤهله لذلك .

والمقصود بآيات الله تعالى- في خلقه :

أي القوانين المتعلقة بمخلوقاته الحية كالإنسان والحيوان والحشرات والطيور والنباتات ... ، فكل نوع من هذه المخلوقات سننه وقوانينه الخاصة به ، والتي بمعرفتها وحسن التعامل معها ، تتم ترقيتها والاستفادة منها وتحسينها والتغلب على مشكلاتها .

وبمعرفتها ينكشف لنا معلومات جديدة بخصوصها ، وبهذا يتولد لدينا موضوعات ومعارف جديدة تعتبر شرطاً أساسياً من شروط قيام العلوم وتأسيسها وإثرائها وكيونتها .

والمقصود بعبادته في سالف زمانه :

أي فعل الله تعالى- في الأمم والحضارات ، وطريقته في نصرته لأوليائه وحربه لأعدائه ، ونواميسه التي تحكم الظواهر التاريخية ، وسننه التي تضبط مسيرة الأمم والحضارات عبر التاريخ ، وتحدد صلاحها وفسادها ، وأثر قربها من الله ونتائج البعد عنه . فهذا العنصر من عناصر التعريف يتعلق بمسار التاريخ البشري الجماعي أي الأممي وليس الفردي .

إن التاريخ هو المرأة التي تعكس حركة الإنسان في الزمن ، وتذبذبه بين الهداية والضلالة ، وإن معرفة السنن التي تحكم هذه الحركة ، تثري الخبرة وتعين على التخطيط والتنبؤ بالمستقبل ، وتكسب الباحثين المنهجية والرؤية الصحيحة في تفسير ومعالجة تاريخ الإنسان في ضوء التصور الإسلامي ، وتعين على معرفة أسباب تقلبات الأمم والحضارات بين العزة والشقاء والذل والهوان ، وتنبه إلى الاستفادة من سنن التداول والتعبير وسنن الاستخلاف والتمكين في الأرض ، وتكسب القدرة على النهوض والتجدد والأخذ بسنن التحضر والانتصار .

والمراد بمنهجه التشريعي القائم في عبادته :

أي سنن الهدى ونظم التشريع التي تبصر الناس بالسلوك الصحيح والاستقامة في المعاش والمعاد ، وتحقق لهم السعادة والخير في الدارين ، والذين يتحملون مسؤوليتها الشرعية بين الثواب والعقاب .

فتحقيق السعادة لا يتم إلا بالانسجام مع سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وعدم الاصطدام معها ، ولا يتم ذلك إلا وفق إدراك الإنسان لغاية وجوده في الحياة ، وذلك بالتزام السنن الشرعية واجتناب النواهي ، وأداء العبادات ، وربط الصلة بين القصد والقول ، والتصور والعمل ، وبين العقيدة والسلوك ، فالأفعال والمقاصد والنوايا التعبدية لها أثر كبير في حياة الأمم ، وانعكاس على أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية ..

فإما أن يسعدوا إذا التزموا بمعاييرها ، وإما أن يشقوا ويسقطوا في مستنقعات الأثام إذا تنكبوا ، فيورثهم ذلك الضعف والهوان والقط والفتن ، والأوجاع والأمراض الغريبة ، والأزمات الروحية ...

كما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هذه العناصر الأربعة التي يقوم عليها التعريف ، تمثل أربعة أنواع من السنن ، وأن كل نوع منها يندرج تحته جزئيات أخرى من السنن تتعلق بها وفق حزمها ونسقها وارتباطاتها بموضوعاتها .

الضوابط والأسس التي من خلالها تستنبط السنن الربانية

أولاً : تختلف طريق البحث ومناهج المتخصصين في استنباط السنن الربانية باختلاف نوع السنة ، وموضوعها ، والحقل الذي تنتمي إليه .

وتتفاوت الأنظار والمدارك حول استخراج هذه السنن واستمادها من القرآن والسنة نظراً لتعدد الأساليب القرآنية والتوجيهات النبوية في التعبير عنها من حيث الإجمال والتفصيل وتنوع الصيغ والدلالات التي تشير إليها .

ثانياً : إن استقراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتحدث عن السنن الربانية على اختلاف أنواعها والقدرة على استخلاصها ، إنما هو مينيّ في الأساس على المؤهلات العلمية التي يحتاج إليها المفسر أو المفكر ، لكي تمكنه من فهم اللغة والجمع بين النصوص إلى غير ذلك من الشروط والآداب التي لا بد منها للمفسر أو المفكر ، ولا بد منها للفهم والاستنباط ، فعلاقة العلوم الشرعية بالعلوم الأخرى علاقة الوسيلة بالغاية ، ولا يمكن أن تتحقق الغاية من غير الوسيلة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وكل علم له رجاله ومشاربه وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ (23) .

ولعل من السنن والحقائق الكامنة والمستترة وراء الآيات القرآنية والنصوص النبوية من لو استقرأها العلماء كل من زاوية تخصصه ، ما يسعهم ويثريهم جميعاً ، ويعين على تقدمهم في مختلف تطبيقاتهم العلمية والعملية . لهذا لا بد من تحديد المنهج الإسلامي في الإفادة من هذه السنن وتحديد دور المتخصصين في التعامل مع هذه السنن ، فعالم الفلك أدري بالسنن المتعلقة بالجغرافيا المناخية من الطبيب ، والطبيب أدري بسنن العلاج وقوانين الصحة والمرض من عالم الفلك ، وعالم التاريخ أدري بسنن التاريخ من المحدث ، وعالم النفس أدري بسنن النفس من الفقيه ، والفقيه أدري بسنن الشريعة من عالم الفيزياء .

ثالثاً : كما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هناك تداخلاً وتشابكاً في علاقة السنن بعضها ببعض ، فلا بد من الإحاطة والفهم الكلي والشمولي ، لإدراك العلاقة الفكرية التي تربط بينهما من جهة ، وبين تطبيق هذه السنن على الواقع من جهة أخرى .

وبإدراكهما معاً إدراكاً واعياً متوازناً تنسجم القراءتان لسنن الله المنظورة مع سنن الله المسطورة . فنحن بحاجة لتحقيق هذه الضوابط إلى عقلية ذكية تزوج بين علوم الدين وعلوم العصر ، وتجمع بين فقه السنن الهادية وفقه السنن البانية وتواكب المكتشفات العلمية الجديدة .

رابعاً : مما ينبغي ملاحظته أن من أهم الضوابط التي من خلالها تستنبط السنن الربانية أن يكون الباحث فيها -لا عنها- من أولي الأبصار ، ولديه قدرة ذكية على الربط والمقارنة والإستنتاج ، فلا يكفي أن يكون مؤرخاً بل عالماً وفيلسوفاً في التاريخ ، ولا يكفي أن يكون فقيهاً بل مجتهداً في الفقه ، فلا يقف عند رصد الأحداث وتقلبات الليل والنهار ، والاحتفاظ بالسلسلة والاسترسال للأفعال والأفكار والأحداث عبر التاريخ ، وإنما يتجاوز هذا المنهج والأسلوب الروائي ، إلى منهج التعليل والتحليل للأحداث والوقائع (مادية التاريخ) ومحاولة استنباط نتائج من هذا التعليل والتحليل ، للتنبؤ بمالية التاريخ كفعل لا كفكر ، وإن كنت أميل إلى العطاء المتكامل بين الفعل والفكر التاريخي كمؤثر ومتأثر .

هناك أسس ودعائم فكرية يقوم عليها فهم السنن الربانية تتعلق في التصور والاعتقاد ، أشير إليها إشارة ، ولا يتسع المقام لبيانها وتفصيلها ، من أهمها :

- أ- الإيمان بالغيب .
- ب- اعتماد المصادر الشرعية والتثبت من صحة الأخبار .
- ج- ربط السنن بمفهوم العناية والتسخير ، والقيم الأخلاقية .
- د- ربط الأسباب بالمسببات الصحية .
- هـ- اختيار الإنسان ومسؤوليته وفاعليته تجاه السنن .

- و- توافق الحقائق الكونية مع غيرها من الحقائق القرآنية .
 - ز- تكريم الإنسان وتشريفه ونشأته مسلماً مفطوراً على الدين .
 - ح- النظرة الإسلامية الشاملة للإنسان والكون والحياة .
- ولعل مما يزيد هذه الضوابط والأسس تأكيداً ووضوحاً أن نتحدث عن الأساليب القرآنية والتوجهات النبوية في التعبير عن السنن والدلالة عليها ، والتي تعتبر في حد ذاتها ضوابط لاستنباط السنن واستكشافها .

من الأساليب القرآنية والتوجيهات النبوية في الدلالة على السنن الربانية واستكشافها

من أهم التوجيهات والأساليب القرآنية والنبوية في التعبير والدلالة على السنن الربانية والإرشاد إلى اكتشافها واستخراجها ما يلي :

1- ترُدُّ السنة بصيغة مباشرة في القرآن الكريم مثل قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾⁽²⁴⁾ . وقوله تعالى : ﴿ لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾⁽²⁵⁾ .

2- الإخبار بلفظ السنة ومشتقاتها صراحة ، مثل قوله عز وجل : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾⁽²⁶⁾ .

3- كلمة (آية) باشتقاقاتها المختلفة في القرآن الكريم ، وتعد اقرب لفظ لمفهوم السنن الربانية بالمعنى العام وما يندرج تحته من أقسام ، كالسنن الكونية والسنن التاريخية والسنن الإنسانية والسنن التشريعية، وكلمة (آية) تحتاج إلى استقراء لمعانيها التي تزيد على ثلاثة عشر معنى ، ولكل معنى دلالة علمية خاصة .

4- كلمة (الحق) التي ترد كثيراً في القرآن الكريم ، وهي تشير إلى وجود (القانون) والحكمة والغاية والانتظام في الأشياء ، وهذه الكلمة (الحق) تحتاج إلى استقراء كامل لاستجلاء ما تنطوي عليه من دلالات علمية⁽²⁷⁾ .

5- من خلال كلمة (المقدار ، والتقدير ، والقدر)⁽²⁸⁾ .

وهي كلمات ترد كثيراً في القرآن الكريم ، وهي ألفاظ تشير إلى ناحية (الكم) كما تشير إلى مفهوم الكمون وطبائع الأشياء وخصائصها ، ولاشك أن معرفة خصائص الأشياء والقوانين التي تنطوي عليها تمكن العلماء من الاكتشافات ، والاستفادة من سنن الله الماثلة في الكون في مختلف مجالاته .

6- من الإرشادات التي نبه القرآن إليها ليجعلها العلماء موضوع اهتمامهم ودراستهم ناحية (الكيف) من خلال كلمة (خلق) ولفظه ﴿ أَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ و ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وذلك لبيان كيفية وقوع الظواهر ، وهذا لفت العلماء إلى أن سنن الله في الكون لها هيئة وطبيعة وتراكيب ، تترتب عليها وظائفها .

7- كلمة (موزون) تشير آيات كثيرة إلى قانون التوازن ، وأن كل ما في الكون يجري على نظام دقيق موزون متناسق ، وسنن رياضية تدعو إلى الدهشة والبحث .

⁽²⁴⁾ الذاريات ، الآية 49 .

⁽²⁵⁾ يس ، الآية 40 .

⁽²⁶⁾ فاطر ، من الآية 43 .

⁽²⁷⁾ انظر : كلمة الحق في القرآن الكريم ورودها ودلالاتها ج1+ج2 ، محمد بن عبد الرحمن الراوي ، مطابع جامعة الإمام الرياض 1409 هـ .

⁽²⁸⁾ القدر : تعلق إرادة الله بالأشياء عند إيجادها ، بينما القضاء هو التعلق بها أزل قبل إيجادها ، بمعنى آخر القدر الكتابية ، والقضاء الخلق والإيجاد ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ (فصلت: من الآية12) ، مثال : المهندس عندما يخطط البناء هذا اسمه قدر ، لكن إذا قام البناء وأصبح واقعاً محسوساً فهذا اسمه قضاء ، والله المثل الأعلى .

8-كلمة (سخر) و (تسخير) و (جعل) و (أنشأ) وهي ألفاظ ترد كثيراً في القرآن الكريم ، وهي تشير إلى قانون (الاطراد) في الأشياء ، ومفهوم (التسخير) في القرآن الكريم هو المقابل لمفهوم (الحتمية) أو (الضرورة) في التصورات العلمية الحديثة .

ففي آيات عديدة من كتاب الله المعجز تجد تأكيداً مستمراً على أن السماء والأرض وما في هذا الكون مسخر ومهيئ للإنسان حتى يتعامل معه ، ويتمكن من أقصى درجات الانتفاع منه .

9-كما ترد السنن وخاصة النفسية منها والاجتماعية بذكر بعض المصطلحات القرآنية مثل : النكران، التعود ، القنوط ، الهلع ، التعجيل ، الاستغناء ، القابلية ، الكسل ، الفضولية ، التعارف ، الاستدراج ، الابتلاء، التغيير ، التفاوت ، الإنذار ، التداول ، التدافع ، السببية ، إلى غير ذلك من المصطلحات العلمية التي ترد في القرآن الكريم .

10-تشير آيات كثيرة إلى (قانون الزوجية) وتبين أنها سنة عامة وقاعدة شاملة لجميع الخلق ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾⁽²⁹⁾ .

في عالم الحيوان وعالم النبات وجميع الكائنات الحية والجمادة ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾⁽³⁰⁾ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾⁽³¹⁾ .

هذه الدلالة لها أهميتها عند أهل الاختصاص وهي تكشف عن بُعد علمي متقدم في البحث والنظر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

11-كذلك نفق على معنى السنن من خلال قصص القرآن الكريم في أخبار الأمم السابقة ، ومن خلال حديث القرآن عن بعض الأقوام والجبابة ، وبيان مصيرهم الحضاري والأخروي كما في قوله تعالى (أهلكنا) و (حق عليها القول) ...

12-تشير آيات قرآنية إلى (السببية) وأن هناك ربطاً محكماً وعلاقة ثابتة بين العناصر والظواهر الكونية ، وهي آيات تضع البحث العلمي على الخيط الذي يربط بين الأشياء وعللها ، فتمنحنا هذه الدلالة ، الرؤية التركيبية للكون، وإتقان التعامل مع سننه .

13-في كتاب الله -عز وجل- أمثال كثيرة تضرب ، وهي ليست تعبيرات بلاغية فحسب ، بل هي أيضاً لغة جديدة في الكلام عن حقائق علمية ، أراد الله أن يقربها للإنسان لكي يفهم المراد .

وتأتي في القرآن الكريم أيضاً أساليب أخرى من التعبير توجه النظر إلى سنن هذا الكون ، وتفسح المجال العلمي للنظر في الأفاق ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾⁽³²⁾ ، وقوله تعالى : ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾⁽³³⁾ ، ففي هذه الآيات دلالات علمية على حركة الأرض حول نفسها ، وحث للفكر على استكشاف سر التفاوت في طول الليل والنهار حسب فصول السنة .

14-أقسام القرآن الكريم : ففي كتاب الله -عز وجل- أقسام كثيرة بمظاهر الكون ومخلوقاته ، مثل قوله جل جلاله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾⁽³⁴⁾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وأقسام بعنصر الزمن مثل : (والعصر) (والضحى) (والليل) وغير ذلك من الآيات ، وذلك لنعلم أن الله -تعالى- ما كان ليقسم لنا بها لولا أن صنعه فيها مملوء بالقوى

⁽²⁹⁾ سورة الذاريات ، الآية 49 .

⁽³⁰⁾ سورة الليل ، الآيات 1-3 .

⁽³¹⁾ سورة النجم ، الآيات 43-45 .

⁽³²⁾ سورة يس ، الآية 39 .

⁽³³⁾ سورة الأعراف ، من الآية 54 .

⁽³⁴⁾ سورة الواقعة ، الآيات 75-76 .

والحكم والسنن والقوانين والأسرار ، فما أعظم إمكانات العلم لمن يضع هذه الأقسام موضوعاً لبحثه وأمام عقله ليستترشد بها ، وتكون سنداً لتصور علمي أو سبيلاً إلى حقيقة علمية .
وإن فهم القرآن العظيم سيظل فهماً متجدداً ، وسيظل كل عصر يبلغ من العلم ما يستطيع أن يصل إلى جديد في القرآن الكريم .

15-وجه القرآن الكريم إلى المناهج العملية المنظمة على اختلاف أنواعها . كالمناهج التاريخية ، ومنهج الاستقراء (التجربة والملاحظة) ومنهج الاستنباط ، وكل منهج من هذه المناهج يشير إلى نوع خاص من السنن ، ويكشف النقاب عن أبعاد واسعة للأبحاث العلمية في مجالها⁽³⁵⁾ .
16-بين القرآن الكريم في كثير من الآيات أن السنن الجارية في حالة معينة أو جزئية معينة ، هي سنة عامة لسواها من نوعها ، وهذا يفهم من مثل قوله تعالى (قد خلت) (قل سيروا) وهذه دعوة للعلماء إلى صياغة القوانين الكلية من خلال الجزئيات المستقرة ، ولا شك أن هذا الأسلوب فيه استلزام للتجربة والاستقراء وتوجيه للمسلمات العلمية العامة في الكون والإنسان والحياة .
وبهذا يتبين لنا كيف فتحت آيات الله البيّنات للتفكير رؤية جديدة في دراسة السنن الربانية ، ومنحته النظرة المنهجية المنظمة في بحثها واستكشافها .
ولو ذهبنا نستكثر من أسرار آيات القرآن العظيم وإمكانات فهمه ، لوجدنا أنفسنا أمام أنواع من الفهم لا نهاية لها .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾⁽³⁶⁾ .

من توجيهات الهدي النبوي في الدلالة على السنن الربانية ما يلي :

- 1**حسنة عليه الصلاة والسلام على المنهج التجريبي لمعرفة خصائص الأشياء معرفة علمية دقيقة ، قال عليه الصلاة والسلام : (إن الله خلق لكل داء دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله)⁽³⁷⁾ . وفي هذا توجيه إلى التجربة والملاحظة والمحاولات العلمية التي من خلالها نصل إلى النتائج الصحيحة .
- 2**وجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى معرفة الأسباب الصحيحة وراء إدراك الظواهر الكونية ، وأمر بربط الأسباب بالمسببات العلمية الصحيحة ، فمن ذلك حديث تأبير النخل وحديث الخسوف والكسوف ، وأحاديث العدوى والوقاية ، كما هو معروف في كتب السنة .
- 3**حدث الرسول عليه الصلاة والسلام على تقدير الأمور تقديراً علمياً متخصصاً فقال في تحديد رؤية الهلال ، للخروج من الشكوك ومعرفة السنين والحساب معرفة دقيقة : فافقدوا له قدره .
- 4**مبرمجه ﷺ للأحداث وتنبؤاته بالسنن المستقبلية ومطابقتها للواقع إذا توافرت شروطها ، وربطها بالأسباب ، سلباً وإيجاباً ، وخاصة في أحاديث الفتن المعروفة في أبواب السنة ، مثل حديث (خمس بخمس ، أو الأحاديث التي أكثر عليه السلام من قوله فيها كيف بكم إذا .. ، وذلك للتنوير والانضباط وأخذ الحيلة والاستعداد لها ، والتنبيه إلى الفتن والأمور المستقبلية ، حتى لا تفاجئهم ، ولا يعرفونها إلا في وقتها ، فتنهتهم .
- 5**محاربته عليه الصلاة والسلام التعليقات الأسطورية والتنبؤات القائمة على التنجيم والتخمين ، والحظ والظن ، وتحذيره من استعمالها وتعاطيها ، وذلك لما لها من عيوب ، ونتائج سيئة على أفكار الأمم وحياتهم ، ولتناقضها مع المنهج العلمي في البحث والتجريب ، ومن أحاديثه عليه السلام في هذا الباب : من اقتبس شعبة من النجوم ، اقتبس شعبة من السحر⁽³⁸⁾ . والأمثلة كثيرة في هذا الباب ، ويكفيها من العقد ما يحيط بالرقبة .

⁽³⁵⁾ انظر : عجائب القرآن للإمام فخر الدين الرازي ص12 وما بعدها ، دار الكتب العلمية ، بيروت . وانظر : أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، فخر الدين الرازي 201 ، 230 ، دار واسط ، بغداد .

⁽³⁶⁾ سورة الكهف ، الآية 109 .

⁽³⁷⁾ مسند أحمد ، انظر صحيح الجامع الصغير 37/3 .

⁽³⁸⁾ رواه أحمد 227/1 ، وأبو داود 15/4 .

أهمية السنن الربانية

أولاً : إن دراسة السنن الربانية يحتاج إليها المربي والمصلح والعالم والمفكر ، وهي تعطي لهؤلاء جميعاً مشكاة يستضيئون بها في دراساتهم وأبحاثهم على اختلاف تخصصاتهم . كما أنها مدخل جديد للدعوة الإسلامية يقود كثيراً من العلماء إلى الإيمان بالله ، يزيل المعارضة المفتعلة بين العلم والدين ويجعل من العلم محرراً للإيمان .

وهي تشكل مناهج ومعالم في طريق التربية والتعليم وإطاراً للتغيير ، ومجالاً للإعداد والتكوين، ومنطلقاً للاكتشافات والاختراعات العلمية ، وإثارة للوعي والاستعداد ، ووفرة للاقتصاد والبناء... الخ ، فعلى سبيل المثال ، في مجال التربية والتغيير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (39) . وفي مجال الإعداد والتكوين قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (40) . وفي مجال الاكتشافات العلمية قوله تعالى : ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (41) .

وفي مجال المستقبل الواعد والانتعاش الاقتصادي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (42) . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث والسنن التي تمثل مناهج ومعالم ودلالات علمية وتربوية أمام المفكرين والعلماء للاستفادة منها والتنبيه إليها ، في شتى المجالات والتخصصات (43) .

ثانياً : إن موضوع السنن من الموضوعات المهمة ذات التأثير على مجرى الفكر البشري عموماً ، والإسلامي على وجه الخصوص ، فهو يتعلق بمنهج التفكير ، وللمنهج أثر كبير في توجيه العقل وتربيته على التفكير العلمي الصحيح ، واستبعاد التفكير الخرافي ، وكل أمة لا تصلح منهج تفكيرها ، لن تستطيع التقدم والنهوض .

ثالثاً : وهو موضوع تدعو الضرورة اليوم أن نهتم به ، لما يحيط بالأمة الإسلامية من صراع المذاهب والأيدلوجيات ، التي تدعي أنها تفسر حقائق الوجود وسنن الكون ، وتحدد وظيفة المجتمعات البشرية وتطورها في الحضارة والتاريخ .

وإن إحياء فقه السنن الربانية وتفciيله والعمل على استثماره في شتى العلوم والتخصصات ، مطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى ، وهو لا يقل أهمية عن فقه الصلاة وفقه الزكاة .

لتكون بذلك أكثر فهماً وتدبراً لكتاب ربنا وهدى نبيينا عليه الصلاة والسلام وأكثر تبصراً بالأحداث التاريخية والحضارية التي تمر بنا ونعيشها اليوم ، ونكون بذلك على مستوى عصرنا ، وأقدر على فهم العالم من حولنا .

إن قدرتنا على تسخير قوانين الكون والاستفادة من طاقاته تعيننا في الاعتماد على الذات والخروج من منطقة الجاذبية الغربية والسيطرة الأجنبية .

(39) سورة الرعد ، من الآية 11 .

(40) سورة الأنفال ، من الآية 60 .

(41) سورة فصلت ، من الآية 53 .

(42) سورة الأعراف ، من الآية 96 .

(43) انظر : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص 177 ، دار الفكر 1402 هـ .

والحقيقة إن الكشف العظيم والتقدم العلمي والتقني الذي نشهده اليوم من جميع جوانبه ، يعتبر تنويجاً لجهود العقل في محاولة فهم الكون وتسخير سننه وقوانينه في عمارة الحياة⁽⁴⁴⁾ . ولعل من الموضوعية أن نقول : إن العقل الغربي الحديث قد أبدع في اكتشافه قوانين الكون ، وأبدع كذلك في تحويل هذه القوانين إلى تطبيقات علمية (وتكنولوجية) . ومع تقديرنا واحترامنا للجد والمعاناة الشاقة والصبر على متطلبات البحث والدراسة التي اتصف بها هذا العقل ، لكنه مع ذلك أخطأ في تفسير علاقة العناية والتسخير ، وضل كثيراً عن فهم غاياتها الربانية وأهدافها الصحيحة . ومع هذا : فإن من سنة الله في هذه الحياة أن تظل هذه الأرض معمورة ماضية في أخذ زينتها وزخرفها ، خاضعة لسنة التطوير العمراني حتى تقوم الساعة ، أي لا بد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية .

فإذا كان المؤمنون مستحقين للاستخلاف استخلفوا ، وإلا فإن الاستخلاف يكون لغيرهم لتستمر الحياة ولا تتوَل إلى خراب طبقاً لسنته عز وجل ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْتَبِهُلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَكُمْ ﴾⁽⁴⁵⁾ ، لأن السيادة لا تكون للمستضعفين الغافلين الذين تحول إسلامهم في حياتهم إلى مظاهر تفصل واقعهم السلوكي عن قواعد الإيمان ومتطلباته .

إن عمارة هذه الدنيا أمانة ، يشرف الله بها عباده المسلمين طالما كانوا مسلمين فعلاً فإذا انحرفوا استلثت الأمانة استودعت عند غيرهم ، وربما كانوا شراً منهم ، لا ضير .. فإن الله لا يوقف عمارة الأرض وحركة الحياة من أجل الذين ارتدوا على أعقابهم ، وانحرفوا عن منهج التشريف والتكريم ، لا بد أن تظل الحياة مستمرة ، وقانونها نافذاً، إن لم يكن زمامها بيد هؤلاء كان بيد آخرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومع ذلك فإن انتقال أزمة القيادة من المسلمين إلى غيرهم ، ليس في حقيقته نصراً لأولئك الآخرين ، ولكنه تسليط .. يسلطهم الله -تعالى- على هؤلاء الذين خانوا الأمانة ونبذوا العهد ، عسى ذلك أن ينبههم ويعيدهم إلى الاستقامة والرشد ، فهم في حقيقة هذه السنة الإلهية ليسوا أكثر من سباط تجردها الأقدار الإلهية على ظهور أولئك الذين لا بد أن يتلقوا التربية والتأديب من الله -عز وجل- لتقريبهم .

ثالثاً : الانتفاع من السنن واستثمارها في مختلف التخصصات والتطبيقات العلمية والعملية: وتظهر ثمرة السنن وأهميتها في تنمية وسائل الحياة المادية ، وحسن دراستها وتوظيفها في عملية التنمية الشاملة للمجتمعات البشرية ، وتسخيرها من أجل عمارة الأرض ، والقيام بواجبات الاستخلاف المطلوب ، وذلك باكتشافها والانتفاع بها واستثمار خواصها في مختلف التطبيقات العلمية .

فإنه -تعالى- قد أخبرنا أنه سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض ، على وجه الإجمال وجعل هذا الكون مهدياً مذللاً للإنسان ، ولم يقدم لنا التفاصيل الجزئية الخاصة بقوانين الفيزياء والكيمياء والأحياء والبحار والفضاء وقوانين الصحة والمرض .. الخ ، وطلب منا أن نسير وننظر ونسمع ونرحل ونتأمل ونتدبر ونتفكر ونشاهد ونفقه ، وطلب إلينا أن نبحث بحثاً علمياً موضوعياً استقرائياً محاولين الوصول إلى تلك القوانين أو الحقائق أو السنن ، استجابة لتوجيهاته ونداءاته تعالى بالنظر والبحث وصولاً إلى تطوير الحياة المادية ، وفي قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ ﴾⁽⁴⁶⁾ و ﴿ سَخَّرَ لَكُمْ ﴾ نص لا يحتمل التأويل على أن الله -تعالى- ينبه العقل البشري ، إلى أن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية ، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم ، إنما كان لأجل الإنسان الذي كرمه الله -تعالى- بالعقل وفضله على سائر المخلوقات لينتفع به .

(44) انظر : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، د.محمد سعيد رمضان البوطي ص177 ، دار الفكر 1402هـ

(45) سورة محمد ، من الآية 38 .

(46)

فالكشف عن أسرار الكون ، والبحث عن حقائق الموجودات سماوية كانت أو أرضية ، هو في نظر القرآن مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض ، لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع التي يحيا بها حياة طبيعية، يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم (47) .
على أن الإنسان لا يستطيع أن يصل من التأمل في الكون إلى معرفة سننه ونظامه وقوانينه إلا إذا وثق بنفسه أولاً ، وأمن بأن الكون المشاهد خاضع لإدراكه وبحثه ، وبأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذي لا يفسر ، وبأن في مقدوره الاستفادة من سننه ، واستثمار خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته وسعادته ورفاهيته ، وذلك بتكوين سلسلة متصلة من المتخصصين القادرين على مواصلة عملية البحث العلمي وتطويره ونشر نتائجه وتطبيقاته (48) . وبذلك يكون الذي لا يستفيد من مقدرات الكون حوله إنسان جاهل للنداء الذي يستجيب الكون من خلاله ، وهذا النداء هو كشف القوانين الكونية واستخدامها .

فالتسخير يزداد بازدياد العلم بقوانين الله في خلقه ، فالعلم والتسخير والقانون أمور مرتبطة بعضها ببعض . فالقانون هو الأداة التي خلقها الله لإعطاء الأوامر للكون ، والعلم هو معرفة هذا القانون ، والتسخير هو نتيجة هذه المعرفة .

والكون بما فيه من سنن مختبر يتحقق الإنسان فيه من صحة ما أخبر به الوحي ويضمن إلى صدق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام (49) .

ومن هنا نعرف أهمية العلم بالنسبة للمسلم ، فإذا رسخ المسلم في فهم معنى العلم فإن هذا العلم سيشهد بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر ، وضرورتها كما شهد العلم بصدق قوانين الجاذبية وأقنع الإنسان بمراعاة هذه القوانين وهو يقفز من السطح أو الطائرة ليتجنب كارثة التحطم .

ولقد ازداد التسخير في السنن الكونية بازدياد العلم بقوانين هذه السنن ، وهو ما نسميه بتقدم التكنولوجيا ، وأما التسخير في آيات النفس والاجتماع والتاريخ ، فما زال أقل وضوحاً وتقدماً ، علماً أن الذي يريده القرآن الكريم من الحضّ على النظر في آيات الأنفس ، هو اكتشاف قوانين النفس والقوانين التي تحكم الاجتماع البشري ، والرسوخ في فهم هذه القوانين بغية إقناع الناس، أن مخالفة قوانين الله في الأنفس ، كمخالفة قوانينه في الكون .

رابعاً : الارتباط بالعقيدة وتثبيت الإيمان في النفوس ومقاومة التفكير الخرافي ورد الأوهام. لقد وقعت الأمم القديمة قبل نزول القرآن الكريم في كثير من العادات الجاهلية والتقاليد العمياء ، فربطت ما يحدث في الطبيعة من ظواهر وأحوال بتفاسير خرافية وأسطورية ، وأمنت بالكواكب والأنواء ، وحسبت أن لها تأثيراً على وجودها في الأرض ، فخافتها وتضرعت إليها ، وكانوا بها وبالأسنام يستسقون ويستنصرون وعندها يذبحون.

فلم يتمكنوا من تحديد علاقتهم الصحيحة بالكون والحياة ، وتفسير ظواهره تفسيراً صحيحاً، فظل الكون بكل عناصره وأحواله غامضاً محيراً .

فلما نزل القرآن الكريم أنار العقول ، وأبطل التصورات الضالة ، وحرر الناس من أسر الخرافات والأساطير ، ورفع عنهم العوائق والأغلال التي كانت عليهم ، ووضع لهم التصور

(47) انظر : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين للشيخ محمد الصادق عرجون ص266 طبعة مصر سنة 1386هـ . وانظر كتابه سنن الله في المجتمع ص16-20 . وانظر : العقيدة : محمد المبارك : ص43 . دار الفكر .

(48) انظر : قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر ، د. زغلول راغب النجار ص41 ، طبعة ألوى قطر 1409هـ .

(49) انظر : العمل ، جودت سعيد ص57-59 دار الثقافة . دمشق .

الصحيح عن الحياة والعلاقة الصحيحة بالكون والوجود ، ورسم لهم منهجاً أصيلاً تربوا من خلاله على أصول التفكير السليم⁽⁵⁰⁾ .

من الأعراض التي اهتم القرآن الكريم بها ، نزع الأوهام الضالة التي صاحبت تصوراتهم وتفسيراتهم عن عناصر الطبيعة ومظاهرها ، وتثبيت المفاهيم القرآنية مكانها ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾⁽⁵¹⁾ ، ومن خصائص وصف القرآن للطبيعة أنه أبعدا عن الأساطير ، وجعل الارتباط بين عناصرها وظواهرها وحوادثها وأحوالها وتقلباتها ارتباطاً موضوعياً قائماً على الأسباب والمسببات ، وبذلك فسح المجال الواسع للفكر العلمي ، المبني على معرفة العلاقات الصحيحة في ترابطها ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴾⁽⁵²⁾ ، وقال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾⁽⁵³⁾ ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾⁽⁵⁴⁾ ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾⁽⁵⁵⁾ . ولاشك أن ربط الظواهر بالعناصر ربطاً علمياً موضوعياً ، وربط السنن بعناية الله سبحانه وربطاً سببياً ، يربي العقلية على أن يرتبط الإنسان بالله في تصرفه واستفادته من السنن والقوانين ، التي وضعها الله في الكون ، فلا يعتقد أنه مستقل عن الله أو أنه منفرد بالتصرف ؛ وهذا التصور له أهمية كبيرة ، لأنه يربي الذهنية الإسلامية على الوجهة العلمية ، والابتعاد عن التفكير الخرافي في البحث والتجريب ودراسة الظواهر والحوادث والأحوال ، وفهم السنن ، والتصرف تجاهها تصرفاً علمياً صحيحاً . وربط السنن بالله ، ليس إنكاراً للأسباب والمسببات ، ولا إنكاراً للعلاقات العلمية التي تقوم على أساسها ؛ وإنما هو تعبير عن حكمة الله ، وأن هذا الكون ليس مستقلاً عن الله -تعالى- ولا خارجاً عن إرادته ، ومعنى هذا أنها ذات صلة بمديرها ، وهذا كله ربط بين العلم والإيمان .

خصائص السنن الربانية

أولاً : الربانية :

التصور الإسلامي للسنن -باعتبارها فرعاً منبثقاً عن النظرة الشاملة للكون والإنسان والحياة- تصور مستمد من القرآن والسنة ، فهو تصور اعتقادي موحى به من الله -سبحانه- ، باعتباره جل جلاله هو الذي أوجد هذه السنن في كونه وخلقه ، وشرع جزءاً منها لعباده بوصفه رباً لهم . وهذا ما يميز التصور الإسلامي لهذه السنن عن سائر التصورات الوضعية والفلسفات الضالة ، والخرائط العقائدية المظلمة عن الكون والإنسان والحياة . مما يجعلنا في مجال الثقة والطمأنينة من التلقي ، والتصور اليقيني لحقائق الأشياء ، والمعرفة الكاملة الشاملة بتاريخ الكون وغاية الحياة ، وحقيقة الإنسان ، ومركزه ودوره ووظيفته في هذا الوجود⁽⁵⁶⁾ . وليس على محدودية الفكر والمعرفة البشرية القاصرة ، التي تفسر قوانين الطبيعة وتعلل سنن الحياة تارة بالمصادفة ، وتارة بالتوالد والاكْتفاء الذاتي للكون والطبيعة ، وتارة بالتصور التلقائي للكاننات الحية ، أو الفيض والصدور ، وتارة بالتفاعلات والفيروسات والميكانيكية ، وأخرى بالصراع والتناقض إلى غير ذلك من الأساطير

⁽⁵⁰⁾ انظر : التفكير فريضة إسلامية ، عباد محمود العقاد ص75.

⁽⁵¹⁾ سورة فصلت ، من الآية 37 .

⁽⁵²⁾ سورة الحج ، من الآية 63 .

⁽⁵³⁾ سورة المائدة ، الآية 103 .

⁽⁵⁴⁾ سورة الطارق ، الآيات 5-7 .

⁽⁵⁵⁾ سورة عبس ، الآيات 24-26 .

⁽⁵⁶⁾ انظر : الخصائص العامة للإسلام ، د. يوسف القرضاوي ص7 مكتبة وهبة القاهرة . وانظر : خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص51 ط دار الشروق 1399 هـ . وانظر : ظلال القرآن 2127/4-2129 .

والخرافات القديمة والمعاصرة . فكل ما في هذا الكون بطبيعته السماوية والأرضية من قوانين جامعة وسنن جبليّة قد خلقها الله -تعالى- منذ الأزل ، وهي تسير بعنانيته جلا جلاله وأمره وتدبيره ، وهي ليست أزليّة أبدية ولا مطلقة واجبة (أي حتمية لازمة الحصول) ، وقد رتب الله -تعالى- فيها الأسباب والمسببات ، وفق إرادته وحكمته ، لا بصورة تلقائية ذاتية ، كما يزعم الماديون (لا إله والحياة مادة) لكن هذه السنن تشهد بوحدانية الله الكاملة ، وثبت ربوبيته المطلقة⁽⁵⁷⁾ . وبإضافة السنن إلى الله سبحانه وتعالى- ، ينتفي أن يكون ما يقع من تغيرات وتصورات ونتائج في أحوال الأمم والأفراد ، إنما يقع بفعل الطبيعة أو وفق الحتميات الاقتصادية أو غيرها من الحتميات كما يزعم الماديون . وإنما يقع وفق سنن الله وقدرته ، على مقتضى حكمته وعدله ، فلا خالق إلا الله سبحانه ، ولا مصرف لسنن الكون ولا مقدر لسننته إلا هو جل جلاله ، ولكل شيء في هذا الكون له هيئته وخواصه وحكمته وغاياته المحددة له⁽⁵⁸⁾ ، ولا مكان للعبث والهوى والصدفة العمياء في هذا الوجود ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾⁽⁵⁹⁾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾⁽⁶⁰⁾ وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾⁽⁶¹⁾ وقال جل شأنه : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾⁽⁶²⁾ ، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُحْحَانَكَ ﴾⁽⁶³⁾ ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾⁽⁶⁴⁾ .

وهكذا يتأكد لنا من هذه الخصيصة أن السنن بجميع أنواعها الهية المصدر والمنهج ربانية الغاية والوجهة ، وأن خاصية الربانية هي الخاصية التي تركز عليها الخصائص كلها وتنبثق منها ، وأنها تبصرنا بحقائق كبرى ، من أهمها اليقين على وحدانية الله ، وتدبيره لسنن خلقه .

ثانياً : مسخرة وقابلة للكشف :

الخصيصة الثانية من خصائص السنن هي التسخير وقابلية الكشف . والتسخير في الاصطلاح : خلق الكون وإعماراه وخضوعه لله ، وتهيئته للاستفادة منه ليكون مستجيباً لقدرات الإنسان وأهدافه وحاجاته ، وملبياً لمتطلبات خلافته في الأرض . وخاصية تسخير السنن وقابليتها للكشف تجدها تتردد في القرآن الكريم في مساحات كبيرة ، باعتبارها قاعدة هامة وأسلوب من الأساليب القرآنية التي وجه إليها القرآن الكريم للدلالة على السنن الربانية واستكشافها -كما ذكرت- ، والآيات التي تحدثت عن هذه الخاصية تمنحنا التصور الإيجابي لمهمة الإنسان العمرانية والحضارية ، وتمنحنا صفة السيد الفاعل المرید الذي سخرت له الطبيعة وأخضعت له مسبقاً لتلبية متطلبات خلافته في الأرض وإعماراه للعالم بعناية الله ورعايته⁽⁶⁵⁾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾⁽⁶⁶⁾ ، ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾⁽⁶⁷⁾

(57) انظر : السنن التاريخية في القرآن ، محمد باقر الصدر ص52 بيروت سنة 1400 هـ .

(58) راجع كتاب : الحكمة في مخلوقات الله ، للإمام أبي حامد الغزالي ، فهو كتاب جليل في هذا المقام .

(59) سورة الأنبياء ، الآيات 16-17 .

(60) سورة ص ، من الآية 27 .

(61) سورة الروم ، الآية 8 .

(62) سورة الملك ، من الآية 3 .

(63) سورة آل عمران ، من الآية 191 .

(64) سورة الأنعام ، الآية 115 .

(65) انظر : العقل السليم والرؤية الحضارية ، د.عمار الدين خليل ص7 دار الحرمين الدوحة ط 1403 هـ .

(66) سورة الملك ، من الآية 15 .

(67) سورة فصلت ، من الآية 11 .

. ولنتصور كيف سيكون الحال لو كانت الشمس أو القمر -على سبيل المثال- أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقفيهما .. ولو كانت الجاذبية أخف أو أقل أو أكثر عن شدها المقدر، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي على غير ما هي عليه من دقة معجزة عن النسب المحدودة .. ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح والرياح راكدة ومحور الأرض عمودياً وشكلها غير بيضاوي ... الخ .

لقد رتب الله كل ما في الكون من سنن ، وحدد سبحانه وتعالى أبعادها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية المنوطة بالإنسان ، وأراد لهذه السنن أن تكون مناسبة لقدرات الإنسان الخاصة ، مستجيبة بقدر لمطامحه وأهدافه ليتعامل معها تعاملًا إيجابياً فعلاً ، وقد منح الله -تعالى- هذا الإنسان البصر والسمع والعقل والحواس التي تساعد على اكتشاف ما في الكون من سنن واستخدامها في نفعه ومساعدته ، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في كثير من الآيات ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ النَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (68) .

ومن حكمة الله -تعالى- أنه لم يشأ أن يمهد العالم تمهيداً كاملاً ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية ، لأن ذلك حمل للعقول على تبني حقائق علمية دون السلوك إليها بالتجارب والبراهين ، وهذا ما لا يحمل القرآن أحداً من الناس عليه تكريماً للعقل وإطلاقاً للمنهج التجريبي (69) .

كما أنه يقيض عملية الاستخلاف والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً ، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض .

ثالثاً : الاطراد والتلازم والعموم والانتظام :

الخصيصة الثالثة من خصائص الربانية الاطراد والتلازم والعموم .
والاطراد في اللغة الاستمرار والانتظام وعدم التخلف . واطرد الأمر : استقام وجرى وتبع بعضه بعضاً ، والطرديدان الليل والنهار (70) .

وفي الاصطلاح : وجود الحكم مع وجود العلة ، والعكس تخفيف الحكم لتخفيف العلة ، وبعبارة أخرى : عدم تخلف المسبب عند وجود السبب . أو كلما وجد المؤثر حصل الأثر .
تشير آيات كثيرة في القرآن الكريم إلى وجود القانون والحكمة والغاية والاطراد في نظام الكون ، وهذا ما تدل عليه كلمة (بالحق) التي ترد كثيراً في القرآن الكريم ، والتي تحتاج إلى استقراء شامل لاستجلاء كل ما تشير إليه، ويترتب على وجود مفهوم القانون والانتظام في الأشياء الطبيعية ضرورة خضوعها لسنن وقواعد مطردة لا تتخلف ما دام النظام الكوني قائماً على ما هو عليه وما دامت إرادة الله -تعالى- وقدرته متعلقة ببقائه على هذا الوضع .

فكل شيء في هذا الكون منقاد انقياداً اضطرارياً لقاعدة معينة ولناموس كوني أوجده الله -تعالى- ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والجبال والماء والهواء والنبات والحيوان والرياح والسحب والأنهار وكل الموجودات تخضع لقواعد مضطردة لا تتخلف عنها ولا تخرج عليها وكلها مذعنة لنظام خاص ، حتى الإنسان نفسه في جانب من تكوينه يخضع هذا الخضوع كما يفعل الكون الكبير الذي يحدثنا الله -تعالى- عنه عندما يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (71) ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (72) ، ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ

(68) سورة إبراهيم ، من الآيات 32-33 .

(69) انظر : كبرى اليقينيات الكونية ، د.محمد سعيد رمضان البوطي ص34 دار الفكر 1399هـ . وانظر :

د.عماد الدين المرجع السابق .

(70) انظر : القاموس المحيط " اطراد " باب الدال فصل الطاء ص378 .

(71) سورة الحج ، الآية 18 .

(72) سورة النحل ، الآية 49 .

يَسْجُدَانِ (73) ، « فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ اثْنِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » (74) « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (75) .
والقرآن الكريم كثيراً ما يلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات ، وإلى ما فيه من سنن مرتبطة ببعضها ارتباطاً مطرداً توحى بأن السنن والحوادث والمسببات إنما تصدر عن أسباب ، مما يوحي بفكرة السببية ، فالمطر ينهمر من سحب والثمر يحصل من شجر ، والشجر ينبت من الماء والتراب . والماء ينشأ من عنصرين : الهيدروجين والأكسجين ، ولم يشاهد الإنسان منذ أن فتح عينيه على الوجود أن حادثاً حدث من غير سبب حتى أضحي العقل يسلم بهذا المبدأ تسليماً قاطعاً إلا أن يكون عقلاً قاصراً لا يدرك . وينبغي أن يلاحظ أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ السببية ، وإنما عرض لصورة الكون بما يدل على الاقتران المنتظم المضطرد ، يقول تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » (76) ، « وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (77) ، « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » (78) .

رابعاً : الوحدة والتوازن والاتساق والتكامل :

تحدثت فيما سبق عن خاصية الاطراد وبينت أن السنن الربانية عامة ، خاضعة لقوانين مطردة لا يمكنها الخروج أو الانحراف عنها والانفلات منها ، وإلا لوقع التصادم والاضطراب في هذا الكون .

وأتعرض فيما يلي بشيء من الإيجاز لخاصية الوحدة والتوازن والاتساق لهذه السنن وما لها من دلالة على وحدانية الله ، وأهمية في رسوخ اليقين عليه .
العالم الذي نعيش فيه بكل ما يحويه من كائنات حية وغير حية ، محكوم بدقة فائقة لأنظمة وقوانين وسنن تضبط سيره وسلوكه من أصغره ذرة فيه إلى أكبر مجرة سماوية ، مما يثير فينا الدهشة والإجلال لما فيه من روعة وانسجام واتساق تفوق تصوراتنا ، وتضعف قدراتنا حيالها . ولهذا وصفه القرآن بأنه (موزون) وفي هذا دليل على التناسق في الخلق الدال على الحكمة الإلهية البالغة والقدرة العجيبة ، التي أوجدت كل شيء بمقدار ووزنت كل موجود بميزان ، بحيث تتحقق فيه المنفعة التي أرادها الله لعباده ، قال تعالى : « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » (79) .

قال الطبرسي : " والموزون : المقدر المعلوم ، وزن بميزان الحكمة وقدر في أبواب المنفعة " (80) .

قال الرازي : " اختلفوا في المراد بالموزون ، وفيه وجوه ، منها أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة (81) .

(73) سورة الرحمن ، الآيات 5-6 .

(74) سورة فصلت ، الآية 11 .

(75) سورة الإسراء ، من الآية 44 .

(76) سورة النور ، من الآية 43 .

(77) سورة يس ، الآيات 37-40 .

(78) سورة ق ، الآية 9 .

(79) سورة الحجر ، الآيات 19-21 .

(80) انظر : جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد ، الطبرسي ص 237 .

(81) مفاتيح الغيب 271/5 .

وقال أبو حيان : قال ابن عباس وابن جبير : موزون : مقدر ⁽⁸²⁾ .
 وقال الراغب الأصفهاني : " وقيل بل ذلك إشارة إلى كل ما أوجده الله -تعالى- ، وأنه خلقه
 باعتدال كما قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ⁽⁸³⁾ " ⁽⁸⁴⁾ .
 فالآية ظاهرة الدلالة على أن ما يفضل الله به على عباده إنما هو وليد الحكمة والقدرة ،
 التي تجعل لكل شيء مقداره وميزانه الذي ينتفع به ولا يضر . وتجد هذا التناسق والتوازن في سنن
 الكون كلها ، في الماديات والمعنويات ، في الليل والنهار ، والحرارة والبرودة ، والماء اليابس ..
 والمتقابلات كلها لا يطغى شيء منها على شيء ولا يخرج عن حده المقدر له .. وكذلك المجموعات
 الكونية السابحة في فضاء الكون .. كل منها يسبح في مداره ويخضع لجاذبية محدودة ⁽⁸⁵⁾ ﴿ صُنِعَ اللَّهُ
 الَّذِي أَثَقَّنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ⁽⁸⁶⁾ ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ ⁽⁸⁷⁾ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرَهُ
 تَقْدِيرًا ﴾ ⁽⁸⁸⁾ ، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ⁽⁸⁹⁾ .

ويمكننا إدراك خاصية التوازن والاتساق في سنن الله من خلال آيات عديدة هذه بعض
 منها: ﴿ أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا مَا
 فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبِيذًا وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبَاتٍ وَحَبَّ الْحَبِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ ⁽⁹⁰⁾ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴾ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير
 صنوان يسقى بماء واحد ويُفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ
 يَعْقِلُونَ ﴾ ⁽⁹¹⁾ ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا لَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا
 اللَّيْلَ لِيَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
 مَاءً تَاجًا لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَبَاتٍ أَلْفَافًا ﴾ ⁽⁹²⁾ ، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
 وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ
 فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَوَّنُونَ ﴾ ⁽⁹³⁾ .

والملاحظ في هذه الآيات أن سنن الله الكونية وسننه في الحياة والإنسان في ترابط وتناسق
 وتوازن وأن الوشيجة التي تربط بينهما وشيجة المودة والمنفعة والانسجام والألفة والعبرة ، وأن الله
 هو موجد هذه السنن ومبدعها، فله وحده ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبداً فحقه أن يعبد
 ويحمد . ولا يقتصر هذا التناسق والتوازن على المادة فحسب ، بل يشمل كل ألوان الوجود في عالم
 المادة والروح وعالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد ... فالقرآن الكريم حينما يتحدث عن سنن الله
 في الكون وفي المجتمع والتاريخ ونشوء المجتمعات الإنسانية وعوامل تكوينها وأسباب هلاكها أو
 فلاحها وصلاتها ، ويتحدث عن السنن الإنسانية التي تتناول خلق الإنسان ووجوده ودوراته الكاملة

⁽⁸²⁾ البحر المحيط 450/5 .

⁽⁸³⁾ سورة القمر ، الآية 49 .

⁽⁸⁴⁾ مفردات القرآن ، (وزن) .

⁽⁸⁵⁾ انظر : العلم يدعو للإيمان ، كريس مريسيون ، ترجمة : محمد صالح الزركلي ص159 ، وانظر : فصل
 ضوابط وموازن ، وانظر : الله والعلم والحديث ، عبد الرزاق نوفل ص26-102 .

⁽⁸⁶⁾ سورة النمل ، من الآية 88 .

⁽⁸⁷⁾ سورة السجدة ، من الآية 7 .

⁽⁸⁸⁾ سورة الفرقان ، الآية 2 .

⁽⁸⁹⁾ سورة القمر ، الآية 49 .

⁽⁹⁰⁾ سورة ق ، الآيات 6-10 .

⁽⁹¹⁾ سورة الرعد ، الآيات 3-4 .

⁽⁹²⁾ سورة النبأ ، الآيات 6-16 .

⁽⁹³⁾ سورة يونس ، الآيات 5-6 .

التي مر بها في أطوار خلقه المتعددة ، فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات .

خامساً : الثبات والاستقرار وعدم التخلف :

السنن الربانية بصفة عامة ثابتة مستقرة لا تتخلف ، فما من شيء في هذا الكون إلا خلق الله له صفاته وأوجد له خصائصه وتراكيبه ونواميسه الكامنة فيه ، لكن هذا الثبات والاستقرار لا ينسحب على جميع أجناس هذه السنن والنواميس وأنواعها وما يندرج تحتها من أفراد ، تميزها عن غيرها بخصوصيات معينة .

فالسنن التاريخية من خصائصها أنها ثابتة على الإطلاق ، وما عرف وما جرى لها خرق قط في ماضٍ أو حاضر ، فهي ماضية مستمرة لا تتبدل ولا تتغير على مر الأزمان والدهور ، وذلك لقيامها وبنائها على الحكمة الإلهية ، وخرقها يقتضي التناقض في تدبير الله الحكيم الخبير (94) ، قال تعالى : ﴿ فَلَنْ تُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (95) .

أما السنن التشريعية وأحكامها ، فتجدها تنقسم إلى قسمين : قسم يمثل الثبات والخلود ، وقسم يمثل المرونة والتطور ، ويتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع : مثل العقائد الأساسية والأركان والمحرمات اليقينية وأمها الفاضل التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان ومن شرائع الإسلام القطعية من شئون الزواج والطلاق والميراث والحدود والقصاص ونحو ذلك من سنن الإسلام التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة .

وتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية ، التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر مثل الإجماع والقياس والاستحسان ، والمصالح المرسلة وقول الصحابي وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط (96) .

وقد اختلف أهل العلم في خروج الثوابت عن القاعدة والأصل وأسبابه ، أي في سلب النواميس الإنسانية وكسر السنن وخرق القوانين الكونية في بعض المرات والأحيان ، فقال البعض : سلب السنن والقوانين الكونية والإنسانية لا يكون إلا لمعجزة ، والمعجزات مختصة بالأنبياء فقط ، فلا يمشي إنسان على الماء أو يطير في الهواء ، ولا يوجد إنسان لا يجوع ولا يعطش ولا يخرج ، ومن قال بالكرامة للولياء فقد رأى أن الكرامة تنحصر فقط في إجابة الداعي ، ومنهم من أثبت الكرامة بعيداً عن الغلو وصور الدجل والادعاءات الكاذبة والرياء .

ومنهم من قال أن السنن الكونية والإنسانية تجري بتقدير الله وإرادته ، لكنها ليست أزلية أبدية ولا مطلقة واجبة ، فيجوز أن تخرق في بعض الأحيان أو تسلب خصائصها لحكمة يريد بها الله ، ليس فقط كما يحدث للأنبياء من عدم الحرق في النار أو عدم تأثير السم كما هو معروف في سر الأنبياء عليهم السلام (97) .

وقد عللوا ذلك ووجهوه بردهم على أصحاب الطبائع والحميات المادية بقولهم : حتى لا يظن البعض أن هذه السنن مستقلة عن عناية الله وقدرته وتدبيره ، وحتى لا يقع الوهم بفاعليه الأسباب المطلقة بمعزل عن الله ، وأنها تعمل بمرتكبها الذاتية أو تمارس عملها دون خالق كما تزعم الفلسفات الوضعية قديمها وحديثها- أجرى الله تعظيها في بعض المرات لحكمة يريد بها . والله أعلم .

(94) انظر : تفسير المنار 7/411-412 .

(95) سورة فاطر ، من الآية 43 .

(96) عوامل المرونة والسعة في الشريعة الإسلامية ، د.يوسف القرضاوي ص11 ، وانظر : الحقائق العامة للإسلام ص207 .

(97) راجع الفلسفة القرآنية : عباس محمود العقاد /8 .

السببية بين الإثبات والتعطيل

هناك من يرى أن العلاقة بين ما نسميه السبب وبين ما نسميه بالمسبب هي علاقة مقارنة أو ارتباط في الوجود ، وليست علاقة تأثير وإيجاد أو ضرورة عقلية .
وبكلمة أخرى : إن التلازم بين الأسباب والنتائج في ظاهرات الطبيعة ليس تلازماً حتمياً ، وإنما هو تلازم المشاهدة والمقارنة في الحدوث ، وقد حمل لواء هذه النزعة في الإسلام ودافع عنها بررارة الإمام الغزالي في بعض آرائه، وتبعه غير واحد من المتقدمين والمتأخرين مسلمين وغير مسلمين منهم (هيوم) وعباس محمود العقاد في بعض كتاباته (98). والواقع أن إلغاء مبدأ السببية في الطبيعة ، والقول بأن وجود جميع الظاهرات في العالم هو من فعل الله مباشرة دون أسباب وقوانين طبيعية ، إذ لا أسباب ولا علل في الطبيعة ، قول لا يتفق مع واقع التصور الإسلامي الصحيح على أن هذه النزعة من الأفكار الدخيلة على الفكر الإسلامي على أيدي أولئك المتصوفة هي من جملة المترجمات الفكرية التي امتصتها العقيدة الدينية من تلك الشعوب التي دخلت الإسلام ، وحملت معها كثيراً من موروثاتها وعقائدها ومفاهيمها الماضية .

ولو رفضنا قانون السببية – وهو من المرتكزات الفطرية الأولية- لم يكن لما ورد في النصوص الدينية من الحث على التدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرض وفي آثاره وأفعاله تعالى أي محتوى وأي فائدة ، لأن مثل هذا لا يصح إلا على أساس مبدأ العلية الذي ندرسه بفطرتنا ، والأخذ بنزعة تعطيل قانون السببية يقضي –حتماً- إلى توقف نشاطات الإنسان في جميع مجالات الإنتاج والعمل ، حين لا يكون أي نشاط عملي مؤدياً إلى نتيجة ما دام كل ذلك يصدر عن الله مباشرة ، ولا تجدي جميع الوسائل والأسباب ، ويجعل جميع النصوص الدينية التي تحث على السعي والعمل في سبيل العيش والحياة دون معنى ، ويجعل جميع الجهود الإنسانية في سبيل البحث التجريبي والكشوف العلمية عبثاً (99) .

سادساً : عامة ومحايده تستجيب لكل من يتعقلها :

من سمات السنن الربانية أنها عامة تستوعب جميع البشر مؤمنهم وكافرهم ، وليست خاصة بالمسلمين كما يعتقد البعض ، كما أنها محايدة تستجيب لكل من يتعقلها ، ومن خالفها وتكبتها فهي له بالمرصاد ، فأنه تعالى- قد سن في الحياة سنناً ، ووضع في الكون الوجود أسباباً وقوانين ، وهذه السنن والنواميس مقدره بأسبابها وأقدارها وفق قوانينها الكلية ، تؤتي ثمارها ونتائجها إذا اجتمعت شروطها .

ويستوي في هذه الشروط والنتائج أن يكون الإنسان مؤمناً أو كافراً ، فالإنسان إذا أهمل اكتشاف تلك القوانين وأهمية استخدامها يصبح ضعيفاً ولو كان مؤمناً ، والإنسان الذي يكشف تلك القوانين ويسخرها يصبح قوياً ولو كان كافراً . ولهذا فإن الأمم التي تقدمت في اكتشاف السنن الكونية بمعزل عن الأخلاق بلغت رقيماً مادياً أدى إلى اصطناع حضارة شقية ، كما أن الأمم التي حافظت على أخلاقها وغفلت عن السنن الكونية أمست هزيلة ذليلة .

والله جل جلاله قد حث الإنسان على أن يبحث في الكون والحياة عن الأسباب والعلاقات التي تربط بين هذه السنن ، حتى يهتدي إليها ، ويعمل بها ، وحتى يتحصل على ثمارها ويسخرها لمساعدته وخدمته في الدنيا . فالعمل وسيلة لطلب الرزق ، وعلى الإنسان أن يجتهد في طلب رزقه ، فالفلاح يحرق الأرض ويبدد الحب ثم ينتظر الرزق من الله ، ولو بقي نائماً ، ولم يجتهد في الزراعة ظلماً منه أن رزقه يأتيه بلا حراثة ولا تعهد للأرض ، فإنه سيكون واهماً ، بل أتماً ، لعدم أخذه بالأسباب . وكذلك الدعاة والمصلحون الذين ينشدون الإصلاح والتغيير ، لا بد أن يعلموا ويبدلوا غاية جهدهم من أجل تحقيق ما يصبون إليه من أهداف .

(98) انظر : الفلسفة القرآنية ، عباس محمود العقاد ص 105 .

(99) الكشف عن مناهج الأدلة ص 41 ، 88 طبعة القاهرة 1328 هـ .

وأكثر ما تنطبق عليه هذه الخصيصة من السنن ، سنة التغيير التي تعتبر أم السنن ، فهي سنة تنطبق على الناس كافة ، وهي قاعدة عامة يخضع لها كل الأقوام ، إذا أخذوا بأسباب التغيير فسيتغيرون ، ولهذا كان من الضروري معرفة سنن تغيير الأنفس ، لأن التغيير يكتب في عقول الرجال ، ولأن الفرد هو محرك الأحداث ، وإن أهم عناصر قوى التغيير هو الفرد الواعي⁽¹⁰⁰⁾ .

فالتغيير سنة مجتمع لا سنة فرد ، وبالرغم من أن تغيير الأنفس أساس لتغيير المجتمع ، إلا أن التغيير سنة اجتماعهم جماعية ، لا سنة فردية ، وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد ذلك الجمع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾⁽¹⁰¹⁾ فكلمة قوم تعني المجموعة من الناس ، ومدلولها شامل لأي جماعة ، فالحديث في الآية عن قوم وعن جمع له خصائصه وله عناصره ، ثم جاءت كلمة (بأنفسهم) لتشير إلى الجمع مرة أخرى . وفي آية أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴾⁽¹⁰²⁾ ولم تقل الآية صالحون .

ومن هنا يمكن القول بأن الفردية ليس لها حظ من التغيير الكافي وخصوصاً تغيير المجتمع ، فالتغيير الذي يحدث بالمجتمع يقوم على أساس العمل الجماعي وليس على أساس الجهود الفردية غير المنسقة ، والتي أحياناً ما تكون متضاربة لا تؤدي الغرض المطلوب .

فالتغيير الفردي غير كافٍ لتغيير المجتمع تغييراً كلياً وجذرياً شاملاً لجميع نواحيه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية وغيرها .

سابعاً : التداخل والاشتراك والترابط :

أقصد بخاصية التداخل والاشتراك : أي توارد بعض السنن على بعض وترتب بعضها على بعض وارتباط بعضها ببعض بشيء من العلاقة ، على نحو يؤثر في ميزان البحث فيها وإدراك الحقائق والحكم عليها . وترجع أهمية هذه الخصيصة لما لها من أثر بالغ على الفهم المتكامل والرؤية الكلية الشمولية لفهم السنن الربانية والوصول إليها والكشف عن تطبيقاتها . وأن عدم إدراك هذه الخاصية عند كثير من الباحثين في موضوع السنن الربانية أدى إلى إخلال في التصور والاعتقاد لكثير من مسائلها وأحكامها وتطبيقاتها⁽¹⁰³⁾ .

ذلك لأنه لا توجد سنة إلا ولها تداخل مع الأخرى ، فسنن النصر مرتبطة بسنن التغيير ، وسنن التغيير مقدمة لسنن النصر ، وسنن النصر تابعة لسنن التدافع ، وسنن العقاب والشدة متعلقة بسنن الهداية والتشريع ، وسنن الرخاء متحققة بسنن التمكين والاستخلاف . وتكاد تكون سنة التغيير أم السنن . وقد يكون التداخل في مرحلية السنن واختلاف الأوقات والوقائع ، وقد تجتمع سنة مع سنة في ظرف واحد أو واقعة واحدة أو زمان واحد ، ثم تتعارض ، فكيف ندفع إحداهما بالأخرى ؟ ، وقد يندمجا معاً فينتجان سنة جديدة ذات أثر واحد مع اختلافهما ! فما قواعد الترتيب في ذلك ؟ . وتكاد تكون مسألة التداخل بين أجناس السنن وما يندرج تحتها من أنواع ، ظاهرة عامة ، في معظم علوم الشريعة ومقاصد الدين ، لما بينهما من وشتائج وعلاقات ، فهي مسألة ليست سهلة ، وموضوع يحتاج إلى بحث خاص ، ويكاد يكون لب المشكلة في فهم السنن وتطبيقاتها .

(100) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام ، د.محسن عبد الحميد ص17 وما بعدها .

(101) سورة الرعد ، الآية 11 .

(102) سورة هود ، الآية 117 .

(103) مثال : الزواج والعطش والجوع سنن فطرية ، ونحن مسيرين فيها ولا بد من إشباعها ، ولكن طريقة التعامل مع هذه السنن الفطرية نحن مخيرين فيها ، فمن الناس من يشبعها بالحلال ومنهم من يشبعها بالحرام ، فبدل أن يتزوج يزني وبد أن يشرب اللبن يشرب الخمر وبدل أن يعمل ليأكل يسرق أو يتسول ليشبع غريزة الجوع ، وهكذا .

ولم أقف حسب علمي وإطلاعي ، على كتاب مستقل أصل هذا المفهوم ، ووضح أسبابه ، وحقق مسائله المتعلقة به ⁽¹⁰⁴⁾، غير أنني وجدت من كتب في الشمولية والتكامل ، لكنه أبعد النجعة في الحديث عن هذا الأمر ، لا بل لم يتطرق إليه ، وكان حديثه عاماً شاملاً عن خصائص الشريعة ونظمها .

ومن أسباب هذا التداخل أيضاً : أنه ناتج عن أسلوب القرآن العظيم المتميز ، فحين يتحدث القرآن الكريم في آية واحدة عن سنة معينة ، فإنك تجد هذه الآية الواحدة ، تصلح أن تكون قانوناً اجتماعياً أو سياسياً ، أو نظرية اقتصادية ، أو منهجاً تربوياً ، أو عبرة تاريخية تقدم أقوى الحقائق وأدق المعارف في آن واحد ، وتتوارد كل هذه الأشياء على خاطر الإنسان ، وتشحن مشاعره ووجدانه بهذه المعارف كلها ، ويؤدي كل شيء في هذه الآية دوره في التأثير ، فتتعلم العقول ، وتؤمن القلوب ، وتعتبر النفوس ، تترقى المشاعر ، وتستقيم الأخلاق والسلوك .

ولا يسعني التطبيق على هذه الخصيصة في هذا المقام ، أو تخريج الفروع على الأصول فيها كما يقول الفقهاء ، ونسأله عز وجل أن يبارك في الأعمار والأفكار ، لأفرد بحثاً فيها ، نبسط القول فيه ، ونذكر نماذج وأمثلة تطبيقية من الكتاب والسنة ، وذلك ليتسنى للباحثين اجتماع الفهم المترابط للعلاقة المتداخلة بين السنن ، في رؤية كلية شمولية ⁽¹⁰⁵⁾ ، من جميع جوانبها ، كمذهبية إسلامية ⁽¹⁰⁶⁾ ، ووحدة مترابطة متكاملة ، لا تضارب بينها ولا تصادم ولا تعارض ، وربطها جميعاً بالعقيدة الإسلامية برباط وثيق متماسك .

مجالات السنن وميادنها

لا شك أنه بتحديد جنس السنن وأنواعها وموضوعاتها ومحتواها يتحدد إطارها العلمي والعملية التي تدور فيه، والميادين والمجالات التي تتحرك في نطاقها . وعلى هذا يمكن أن نضع تصوراً لأنواع السنن الربانية بناءً على التعريف الذي ذكرناه لتحديد مفهوم السنن الربانية بصفة عامة ، والذي اشتمل على عناصر أربعة يمكن تقسيمها إلى أربعة حزم أو أنواع هي :

- 1- السنن الكونية .
- 2- السنن التاريخية .
- 3- السنن الإنسانية .
- 4- السنن التشريعية .

ويجدر التنويه في هذا المقام أن لكل حزمة من هذه الحزم أنواعاً فرعية وجزئيات وتفصيلات أخرى من السنن تدرج تحتها ، وتختلف باختلاف مجالاتها وميادنها ، لا يتسع المقام لذكرها .

⁽¹⁰⁴⁾ وقد قدم الدكتور محمد خالد منصور نظرية كاملة في هذا الموضوع في مشروع أطروحته للدكتوراة ، فأولاهها عناية فائقة ، تأصيلاً وتقييداً وتفريعاً ، وكانت بعنوان : التداخل وأثره في الأحكام الشرعية . لكنها كانت في باب الفقه وأصوله .

⁽¹⁰⁵⁾ التصورات الكلية عند علماء التربية ، تعني النظرة الشاملة ، وقد تبنت المدرسة الألمانية المعروفة (بالجنسطلت) هذا المعنى ، ونادت بقيام التعليم على الشمول والكلية ، وأجرت تجارب لتوكيد صحة النظرة الكلية والشمولية في الفهم والإدراك ، وأثبتت من خلالها أن الإنسان يميل إلى إدراك الأشياء بصورة كلية مترابطة مجتمعة ، وهذا هو التصور أو الاستبصار أو العلق ، ولقد أخذ هذا المفهوم يتوسع في التربية حتى صار يعني النظرة الكلية الشاملة في مختلف المجالات . انظر سيكولوجية التعليم ، فصل نظريات التعلم .

⁽¹⁰⁶⁾ المذهبية الإسلامية : هي كل ما ذهب إليه الإسلام في أمور الكون وخالقه والحياة والإنسان . أو " كليات الإسلام في الوجود له " ، انظر : المذهبية الاقتصادية الإسلامية ، د.محمود أبو السعود . مجلة المسلم المعاصر ، العدد الرابع ، ص 60 . وانظر : المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، د.محسن عبد الحميد ، ص 19 .

ويمكن توضيح المجالات والميادين التي تتحرك في نطاقها هذه الأنواع من السنن على النحو التالي :

الميدان الأول : الكون :

إن من فضل الله علينا أن جعل هذا الكون مصدراً كبيراً يمدنا بالسنن ، ومفتاحاً للتحليل والتجريب ، وموضوعاً للتفكير والتأمل ، وميداناً خصبا لفاعلية الإنسان ومجالاً لتفعيل قدراته التي يكشف بها عن قوانينه وأسراره .

وإن من حكمة الله وتفضله علينا أن سخر لنا الكون ، وهياً التهينة الصالحة ، وجعله مناسباً لقدرات الإنسان ومستجيباً لمطامحه وأهدافه ، وشكله وفق صيغ ومعادلات تمكن الإنسان من أداء دوره الحضاري والقيام بأعباء الاستخلاف المطلوب ، ولم يجعله مقلداً مسدوداً ، أو على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية ، والانغلاق والغموض التي يعجز الإنسان معها عن الإبداع والإعمار . وقد ذكرت فيما سبق أن الله لم يشأ أن يمهد الكون تمهيداً كاملاً ، ويكشف للإنسان عن سننه وقوانينه ونظمه وأسراره كلها ، لأن ذلك يكل الإنسان إلى السلبية ، كما أنه نقيض عملية الاستخلاف والابتلاء ، والمسؤولية التي تتطلب عملاً وجهداً ونشاطاً وكدحاً وسعيًا وحركة .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (107) ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (108) .

ولكن هذا الكون المسخر المطيع لا يخدم الإنسان إلا إذا فهم الإنسان كيف يتعامل معه وفق قوانين تسخيره ، وإلا ظل معرضاً صامتاً أمامه ، فكما يستعصي القفل أن يفتح بغير مفتاحه ، كذلك الكون لا يستجيب بغير معرفة قوانينه ، مثله في ذلك مثل الآلة التي لا تتحرك للإنسان الذي يجهل قانون تحريكها ، وحتى يتمكن الإنسان من أقصى درجات الانتفاع من هذا الكون فلا بد من الوقوف على السنن التي تحكم قوانين تسخيره - خصوصاً إذا علمنا كما ذكرت أنه لا يتعامل مع كون مشتت منغلِق وإنما مع كون يتصف بالحركة والانتظام .

فالزراع مثلاً يزداد عطاؤه بمعرفة قوانين زراعته وتحسينه ، والحيوان يزداد إنتاجه بمعرفة قوانين رعايته وتدجينه ، وهكذا فإن عمارة الأرض تزداد بازدياد معرفتنا بالسنن الربانية واكتشافنا لقوانين التسخير واستخدام هذه القوانين في مختلف التطبيقات العلمية والمجالات النافعة . وإن الأمم التي لا تستفيد من مقررات هذا الكون ومخدراته أمم غافلة شقية مستضعفة ، مسجونة في جهلها ، مستعبدة لغيرها ، وهي لا تدري لماذا جاءت إلى الدنيا ولماذا خرجت منها .

الميدان الثاني : الإنسان :

السنن الإنسانية : هي مجموعة القوانين المتعلقة بالطبيعة البشرية التي تحكم الإنسان وتنظمه من داخله وفي خارجه بجوانبه المتعددة وفق إرادة الله تعالى (109) . فالإنسان مركب من الجانب الروحي والجانب العقلي والجانب الجسمي والجانب النفسي والجانب العاطفي والجنسي ..

فإذا كشفنا عن السنن التي تحكم تلك الجوانب فإننا نمتلك مفتاح الشخصية الإنسانية والقدرة على التعامل معها ومعالجة أحوالها وآمالها وهمومها والتغلب على مشكلاتها ...

(107) سورة الملك ، الآية 15 .

(108) سورة إبراهيم ، الآيات 32-34 .

(109) السنن الربانية في التصور الإسلامي ، ص78 .

إن أول جانب وأعلاه وأرقاه في الإنسان هو الجانب الروحي ، فهو القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ، فإذا عرفنا قواعد التربية الروحية وسننها ، نستطيع أن نضع أسس الطب الروحاني لهذا الإنسان ، ومعرفة أمراض الروح وعلاجها ، ونعرف كيف نربط هذا الإنسان بعقيدة الإيمان بالله . أما الجانب العقلي ، الذي يشكل أكبر تميز في الإنسان عن غيره . فإن الكشف عن سنن الله في فاعليته ، يصل بنا إلى قوانين التفكير والذكاء وطرائق التعليم الصحيحة ، وقياس الذكاء ، وبناء المناهج ، وطرق التدريس على أسس منهجية صحيحة .

والكشف عن السنن الجسمية يصل بنا إلى بناء الجسم السليم في مظهره ومخبره وحفظه خالياً من الأمراض ، والاعتدال في سنن الطعام والشراب والتوسط في العمل واللعب والنوم وسائر سلوك الإنسان ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (110) ، كما يصل بنا إلى معرفة معايير النمو في الإنسان ومراحلها المتعددة وتوجيهها التوجيه الصحيح (111) .

والكشف عن السنن النفسية ودراساتها يعيننا على معرفة أمراض النفس وعلاجها والتعرف على أخلاق النفوس وسياساتها وأساليب الحرب النفسية ، وتأسيس علم نفس إسلامي ينسجم مع فطرة هذه النفس .

وكذلك فإن الوقوف على سنة الغريزة الجنسية فيه توكيد على مشروعية الزواج والقناعة بحكمة الله ، وضرورته الإنسانية ، وأن التخبط في فهم هذه السنة أدى إلى مغالطات جنسية في الكنيسة ، وظهور نظريات إباحية باطلة ، بعيدة عن سنن الهدى ، وفطرة هذا الإنسان . والكشف عن جهاز الدورة الدموية يساعد على توقي أزمات القلب (112) ومعالجة الجلطات وإتقان نقل الدم وحفظ توازنه ، والتعرف على سنن الجهاز الهضمي يساعد على معرفة أحوال المعدة والمرارة والبنكرياس ومعالجة مرض السكر واستئصال الأمراض . وهكذا في كل جانب من جوانب الإنسان .

وهناك سنن اجتماعية ترتبط بالسنن الإنسانية فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (113) . فهذه سنة اجتماعية تتعلق بأهمية الوحدة بين الأمة والاعتصام بحبل الله فمن أخذ بها تحققت له نتائج الفلاح والنجاح والنصر . وسنة اجتماعية أخرى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (114) فهذه سنة تعلمنا تنظيم علاقات الناس في زيارتهم ومنازلهم . وسنة أخرى تعلمنا التعارف الاجتماعي ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (115) .

فدراسة السنن الإنسانية في ضوء السنن الأخرى ، وربطها جميعاً بمنهج الله ، خلق بإيجاد الإنسان المستخلف المتفاعل مع الحياة .

وهناك سنن أخرى تتعلق بتوجيه العملية التغييرية ، وسنن تتعلق بالبناء الحضاري (116) ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ

(110) سورة الأعراف ، من الآية 31 .

(111) انظر : علم نفس النمو ، حامد زهران ص12-15 عالم الكتب ، القاهرة 1977م .

(112) انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم 18/4 ط3 مؤسسة الرسالة 1402هـ ، وانظر الجزء الخاص بالطب النبوي من هذا الكتاب .

(113) سورة آل عمران ، من الآية 103 .

(114) سورة النور ، من الآية 27 .

(115) سورة الحجرات ، من الآية 13 .

(116) انظر كتاب : المنهج النبوي والتغيير الحضاري ، بروغوت عبد العزيز مبارك ص67 ، 100 قطر 1995م .

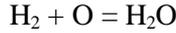
النَّاسُ بِالْفَيْسُطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَبْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١٧﴾ .

هذه الآية تتحدث عن عمارة الأرض وإقامة الحق والعدل وحمائيتها ، كما تتحدث عن سنن وخواص الحديد (البأس الشديد) و (المنافع) كأساس للتسلح والإعداد العسكري ، والتقنية ، هذا ليعلمنا الله -جل جلاله- ﴿ مَن يَبْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ من أجل إقامة الحق والعدل وعمارة الأرض وحمائيتها .

وانظر ، كم هو واضح هذا المعنى ، في سورة الكهف ، في قوله -عز وجل- : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (118) . هذه الآية تعلمنا سنن القوة والضعف وأسباب النصر والهزيمة ، وأن التاريخ لا يملك بالإيمان وحده ، ولكن بالإضافة إلى العمق الإيماني ، لا بد من الأخذ بأسباب القوة فالأمور مقدره بأسبابها وأقدارها وفق قانون كلي .

فالإيمان + الحديد + النار + اليد العاملة = القوة الفاعلة المغيرة .

وكذلك في الأمور المادية : قانون + سبب = نتيجة .



فمن أتقن التعامل مع هذه المعادلات ظفر بنتائجها الصحيحة . ولقد نبه القرآن الكريم إلى نماذج كثيرة أخرى للسنن الإنسانية فمنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْقَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَنَّاكُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (119) . والأمثلة كثيرة ، وذلك من أجل أن تكون هذه السنن المدرسة التي ينطلق منها الإنسان وحجر الزاوية والمفتاح الذي يمنحنا القدرة على التعليم ، وبذل الطاقة لتوكيدها وتفعيلها ، والاستفادة منها في الاستعداد لأداء وظيفتنا في عمارة الأرض وإصلاحها .

وثمة مثلتان من السنن الربانية التي تحكم حركة الإنسان الاجتماعية يشير إليهما القرآن الكريم مثلث يتركز فيما يلي :

سنة التداول ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (120) .

وسنة التدافع : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (121) . ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (122) .

وسنة التغاير : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (123) .

ومثلث آخر يركز فيما يلي :

سنة الابتلاء والتمحيص : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (124) .

سنة الإهلاك وإزهاق الباطل ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مُهُمْ مِنْ آحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (125) . ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتَانًا وَرَبِيًّا ﴾ (126) .

(117) سورة الحديد ، الآية 25 .

(118) سورة الكهف ، الآيات 96-97 .

(119) سورة المؤمنون ، الآيات 12-14 .

(120) سورة آل عمران ، من الآية 140 .

(121) سورة البقرة ، الآية 251 .

(122) سورة الإسراء ، الآية 20 .

(123) سورة هود ، الآية 118 .

(124) سورة محمد ، الآية 31 .

وسنة الأجل المحتومة والحد الزمني والأعمار ، وهذه السنة تؤكد النهاية والفناء والتآكل والانحسار لكل شيء .

وسنن الله في الإهلاك تتجاوز عوائق القوة والعدة ، فإله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهو يحكم لا معقب لحكمه ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهذا المقص الإلهي قد التهم الأمم الظالمة فأجرها من التاريخ ، وانطوت تحت ضربة قاسمة موجهة .
فما أحرانا أن نتعلم كيف نصغي إلى الخطاب القرآني وهو يعلمنا كيف نتعامل مع هذه السنن وهذا الكون المسخر القانت لله ، لأننا كثيراً ما نصاب بانفصال وجداني عن الخطاب القرآني .
ويعلمنا كيف نمضي إلى المستقبل والمصير والجنة والنعيم .

ويعلمنا كيف نعود إلى الوراء لنفقه مسيرة الحضارات فيضعنا في نبض التاريخ لنستفيد من خبراته وقوانين حركته وسنن الله في خلقه ، ويعلمنا كيف نعيش الواقع ، فيضعنا أمام الإبداعات الربانية والهندسة الكونية ، والبدائية والنهاية لخلق الكون والإنسان والحياة ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (127) . ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (128) .

ولا شيء يستطيع أن يحدد هذا الامتداد الكوني ، إنه شيء يفوق طاقة الإنسان ويضعه في حالة من الرعب والخوف والإجلال والتعظيم .
كل ذلك ليحقق الإنسان التوازن بين الحكمة والقوة في هذا الكون الموحد المسبح الطائع لله ، ويحقق العمارة الصالحة للأرض والاستخلاف المطلوب .

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح فقه القرآن ، وتصوروه في ضوء المذهبية الإسلامية الشاملة ، ولم يحصروه في زاوية معينة ضيقة ، فكانوا بحق أمة فاقهة لدينها ودينها ، جمعت في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية البانية والسنن الشرعية الهادية ، وأقامت على أساسها الحياة الطيبة ، وفي ظلها حققوا أمانة الاستخلاف ورفعوا راية التوحيد ونشر الخير والعدل في ربوع الأرض ، وكان لمنهجهم هذا الذي سلكوه وجمعوا فيه بين الفقه التشريعي والفقه الحضاري ، ونور الوحي ونور العقل ﴿ نور على نور ﴾ أثر عميق في نشأة الحضارة الإسلامية الراشدة ، وأثر في نموها واستمرارها وتميزها عن سائر الحضارات .

غير أن عوامل الإعاقة والهدم ، وعناصر الثقافة المنخرمة الدخيلة .. عملت على تبديل معاني القرآن الأصيلة ، وحملت آياته على التحريف والتأويل وأقحمت علوماً ومصطلحات غريبة في تفسيره ، فحجبت حقائق القرآن وتذوق معانيه عن الناس ، وأبعدتهم عن الإنفعال بروحه وصفاء حكمته ، وأطفأت احتفاهم بفقه السنن التي وجه إليها ، ففقد هذا الفقه جذوته وإشعاعاته وحيويته وفاعليته في أذهان المسلمين .

الميدان الثالث : الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله :

من أهم مجالات السنن التشريعية وميادينها التي تعمل من خلالها :

أ- الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله .

ب- إحياء الاجتهاد (أفق التنمية والحركة) .

فإحياء سنن الهدى وإقامة الناس على الدين ، لا يكون إلا بالدعوة وإحياء جهد الأنبياء ، فالدعوة إلى الله هي أم الأعمال لهذا الدين ، وكذلك الجهاد فإنه ميدان خصب وأفق رحب لنشر الهداية ، وأول فقه في هذا الدين هو فقه الإيمان وجهد الدعوة ، إذ بهما تتحقق النيابة عن الرسول والخلافة الربانية في الأرض .

(125) سورة مريم ، الآية 98 .

(126) سورة مريم ، الآية 74 .

(127) سورة العنكبوت ، الآية 20 .

(128) سورة الذاريات ، الآية 47 .

وعلى هذا فإن أهمية الدعوة والجهاد في الأمة الإسلامية كأهمية الروح في الجسد ، إذ بهما تحيي أوامر الله وسننه في الخلق ، وتزداد الأعمال الصالحة في حياة الناس ، وتبقى البشرية جارية على مراد الله - عز وجل- . ويتحقق الاستخلاف الصحيح في الأرض ، وتعطي الأمة السيادة والقيادة الحققة والشهود على الناس وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (129)

وحين يعطل جهد الدعوة وسنة الجهاد ، تفقد الأمة دورها ومهمتها ورسالتها ، فتصبح كالغثاء ، وتعطل السنن والشرائع ، ويسيطر أهل الظلم والبغي والفساد ، وأهل الأهواء والاستكبار في الأرض .

لقد اقتضت حكمة الله أن يقيم صلاح الأرض على قانون الدفع (الجهاد) قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (130) ، بل إن الشعائر التعبدية ودور العبادة محمية بهذا القانون ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصَرْنَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (131)

أما الاجتهاد فهو المجال الذي يشكل أفق التنمية ومنهج الحركة والديناميكية في الإسلام ، لمواكبة المستجدات والتطورات في حياة البشر ، وهو من أعمق المحاور وأوسع الميادين التي يتحرك في نطاقها العلماء والمفكرون لتوكيد قدرة الأحكام الشرعية لاحتواء المتغيرات وهيمنة نظم الإسلام على أوجه الحياة .

كما أن الاجتهاد عامل يحول بين الفكر والجمود ، ويمثل فقه الموازنات بين الثوابت والمتغيرات ، كما أنه يحسن التفكير ويرقيه إلى إدراك فقه الأولويات ومراتب الأعمال ومقاصد الدين

الميدان الرابع : التاريخ :

قدم لنا القرآن الكريم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص العبر والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية .

فالقرآن يؤكد أكثر من مرة على أن التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانا للدراسة والاعتبار تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها (132)

وعلى هذا فالسنن التاريخية ليست أوامر ونواهٍ بالمعنى التشريعي ، وإنما هي تذكروا واعتبار ومدرسة كاملة وديوان ذكريات أقدار البشر ومصيرهم في التقدير والجزاء ، وبمقدار العبرة يكون التوفيق والنجاح .

إن السنن التاريخية تعلمنا أن التاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف ، وإنما تحكمه قوانين ونواميس كذلك التي تحكم الكون والحياة والإنسان والأشياء سواء بسواء ، وأن الوقائع التاريخية لا تخلق صدفة ولا تمضي لهواً ولعباً وعبثاً ، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه

(129) سورة البقرة ، الآية 143 .

(130) سورة البقرة ، من الآية 251 .

(131) سورة الحج ، من الآية 40 .

(132) انظر : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، د. عماد الدين خليل صراه ، وراجع : التفسير الإسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل .

الصفة أو تلك وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك⁽¹³³⁾ قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾⁽¹³⁴⁾.

وجه القرآن الكريم الفكر البشري إلى التقاط (الحوادث) بوصفها (عبراً) ، وهذا من أعظم النقلات المعرفية التي نقل بها العقل ، فتجديد النظرة إلى ما يدور في الزمن ، يخرج العقل من إلف العادة التي تنسي ما تنطوي عليه القوانين أو الظواهر من سنن وآيات ومعادلات وأقدار ، قال تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾⁽¹³⁵⁾ يفهم من هذه الآية الأمور التالية:

- أ- التقليل والحركة الواعية المدروسة وليس المصادفة والعشوائية .
- ب- التقليل نوعان ، تقليل كوني يتعلق بالسنن الكونية ، وتقليل يتعلق بالسنن الاجتماعية والتاريخية .
- ج- التقريب بين العبرة والاعتبار ، فالعبرة هي العظة والدرس . والاعتبار : الترجمة العملية والاستفادة والتوظيف الفعلي والعمل لهذه الدروس والعبر ، مما يقلل من احتمالية الأخطاء أو الوقوع فيها مرة ثانية .
- د- الوصف القرآني للذين يفهمون المعادلات الربانية في تقليل الليل والنهار ، وما ينطوي عليهما ، بأنهم أولي الأبصار ، وهذا يعني ، أن أولي النهى ، أو أولي الألباب ، أو المتوسمين أو ذي حجر ، تصنيفات علمية قرآنية ، ومصطلحات مقصودة ، وأوصاف ومراتب علمية محددة ، تعطي أبعاداً وتصورات جديدة ، للتخصصات المختلفة واحترام المشارب ، فالفقيه غير المجتهد وأولي النهى غير المحدثين والمؤرخ غير عالم التاريخ وهكذا .

ولكن كثيراً ما نغفل أو نصاب بانفصال وجداني عن الخطاب القرآني وإن التاريخ مخزن للخبرات ومعلم كبير لمن يريد أن يتعلم .
لقد وقعت قارة الصليبيين ثم قارة التتار ثم قارة الأندلس وها هي حلت بنا نكبة العراق ججمة الإسلام ، ولا زالت الأمة مستمرة في تخطيها وانحرافها .
ولم تدرس أسباب ما حدث ولم تضع " الحلول الصحيحة " ولا درست " طرق العلاج " ولا " أساليب الوقاية " فاجتاحها البغي العالمي الجديد ، ومزقها شر ممزق أرضاً وفكراً ، ولم تواجه الأمر مواجهة عقلية وعلمية لتستقرئ السنن والأمراض والأدواء على هدى وبصيرة .

النتائج والتوصيات

- السنن الربانية في معناها العام : آيات الله تعالى (قوانينه) في كونه وخلقه ، وعاداته في سالف زمنه ، ومنهجه التشريعي القائم في عبادته ، على مقتضى مشيئته وحكمته وعدله .
- الكون وما فيه من قوانين وسنن أوجدها الله جل جلاله ، وهي تجري بإدارته وتقديره ، وهي بصفاتها وتركيبها قد هيئت تهيئة خاصة ، وذلك لكي ينتفع منها الإنسان في مختلف مجالات حياته ، ولو لم تكن كذلك لما استطاع أن يستشف منها شيئاً على الإطلاق .
- الكون بطبيعته السماوية والأرضية وأحيائه وجماداته محكوم بسنن مقدرة بأسبابها وأقدارها وفق قوانينها الكلية ، فمن أتقن التعامل مع هذه السنن والمعادلات ظفر بنتائجها الصحيحة . وإن كمال الأمم في الزروة أن تجمع في حياتها بين السنن الكونية الشاهدة في الكون ، وبين السنن التاريخية الماثلة في الأمم والحضارات وبين السنن التشريعية الهادية للرسول والرسالات ، وبين السنن الإنسانية القائمة على حرية الاختيار في الإنسان ، وانفكاك هذه السنن عن بعضها وغفلان

⁽¹³³⁾ ابن الوزير ص 13 .

⁽¹³⁴⁾ سورة الرعد ، من الآية 11 .

⁽¹³⁵⁾ سورة النور ، الآية 44 .

أحدها ، يقود إلى الانهيار ، ولهذا فإن الأمم التي تقدمت في سننها الكونية بمعزل عن سنن التشريع الإلهي ، أدى بهم إلى اصطناع حضارة مادية ظالمة باغية شقية ، كما أن الأمم التي حافظت على سنن التشريع في غفلات السنن الأخرى أمست هزيلة مستضعفة ..

• السنن الربانية بكل أنواعها الكونية والإنسانية والتشريعية والتاريخية وردت في القرآن الكريم والهدي النبوي على سبيل الإجمال ، ولكل نوع من هذه السنن حزم فرعية أخرى من السنن تندرج تحتها حسب طبيعة السنة وموضوعها ، وقد وجه القرآن الكريم والسنة النبوية إلى معرفتها وكشفها ، ولكن بعض هذه السنن الواردة في كتاب الله المقروء قد يتأخر الكشف عنها في كتاب الله المنظور والمشهود لتقصيرنا في البحث الدؤوب ، وقد يرجع خفاء بعض هذه السنن لقلّة الوسائل المتاحة بين أيدينا ، أو لحكمة يريد بها الله ، لياخذ كل عصر منها على قدر ما أوتي من العلم والفهم ، وهكذا دواليك ، وهو أمر مطابق لما يقتضيه علم الله وحكمته في جعل القرآن الكريم معجزة الدهر الخالدة المتجددة .

• من الأسس والدعائم الفكرية التي يقوم عليها التصور الإسلامي للسنن ، وتعطينا المقاييس والموازن الصحيحة التي تسير بموجبها لاستثمار السنن وتعليلها ما يلي :

- أ- الإيمان بالغيب .
 - ب- اعتماد المصادر الشرعية والتثبت من صحة الأخبار .
 - ج- ربط السنن بمفهوم العناية والتسخير والقيم الأخلاقية .
 - د- ربط الأسباب بالمسببات الصحيحة .
 - هـ- اختيار الإنسان ومسؤوليته وفاعليته تجاه السنن .
 - و- توافق الحقائق الكونية مع غيرها من الحقائق القرآنية .
 - ز- تكريم الإنسان وتشريفه ونشأته مسلماً مفطوراً على الدين .
 - ح- النظرة الإسلامية الشاملة للكون والإنسان والحياة والآخرة .
- من أهم الخصائص والسمات التي تتميز بها السنن : الربانية ، والتسخير والقابلية للكشف ، والإطراد والتلازم والعموم والانتظام والوحدة والتوازن والاتساق والتكامل والثبات والاستقرار وعدم التخلف ، وأنها عامة محايدة تستجيب لكل من يتعقلها وأن من خصائصها التداخل والاشتراك والترابط ، وهذه الخصائص هي التي تمنح الإنسان الدور الإيجابي والقدرة الفاعلة في الكشف عن السنن ، وهي الأساس الذي يمكن الإنسان من إنجاح تجاربه العلمية واستخدام المنهج التجريبي على الوجه المطلوب .
- من ميادين السنن الربانية التي تتحرك في مجالها وتتفاعل في نطاقها ، الكون والإنسان والدعوة والجهاد والاجتهاد والتاريخ ، فالكون ميدان فسيح للتجربة والاستقراء والدراسات والتأمل ومفتاح كبير يمدنا بالسنن ، ولوحة ناطقة نقرأ في صفحاتها كل يوم آية وسنة من سنن الله - عز وجل- ، والإنسان بما ينتظمه من قوانين تتعلق بطبيعته البشرية التي تحكمه وتنظمه من داخله وفي خارجه ، ميداناً كبيراً يكشف لنا عن جوانبه المختلفة التي تساعدنا على معالجة أحواله وحل مشكلاته . والدعوة في سبيل الله والجهاد والاجتهاد يمثلان أفق التنمية والحركة للتشريع ، والتجديد في حياة المسلمين لتحبي فيهم سنن الهدى وسبل الرشاد . والتاريخ : كنز من التجارب وذخيرة من الدروس وسجل تفصيلي لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر لما يحمله من دورات تكاثرية ، لأن الناس يموتون ويحلفون صدى أعمالهم ونتائج إرادتهم وعزمهم وسعيهم على الأرض .
- وانطلاقاً من النتائج التي انتهت إليها فإنني أوصي بالعمل على بلورة نظرية إسلامية متكاملة في علم السنن الربانية، والاهتمام به بالقدر التي توجهنا به إلى الاهتمام بآيات الأحكام في مجال

التشريع ، لأن القيام بالبحوث العلمية لتعزيز هذا العلم والكشف عن سننه واستخدامها في مختلف مجالات الحياة النافعة ، من فروض الكفاية التي تأثم الأمة كلها بتركه وإهماله والتقصير فيه .

- كما أوصي بأن يكون هناك متطلباً جامعياً لكل التخصصات الشرعية يتناول فقه السنن في الأنفس والأفاق ، ومقرر آخر مساند له بعنوان فقه الأولويات ومراتب الأعمال من أجل بناء التفكير العلمي ، وترقية العقل إلى مراتب الإبداع وحسن الفهم ، كما أنني أوصي بأن يوضع بعين الاعتبار عقد مؤتمر عالمي تحت عنوان فقه الأولويات .

والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

المراجع

- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- روح المعاني ، محمود الألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة .
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم ، مؤسسة الرسالة ، 1977م .
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، للشوكاني ، طبعة أولى ، القاهرة .
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ابن القيم ، دار التراث ، القاهرة .
- الفتاوى ، للإمام ابن تيمية ، إدارة البحوث ، الرياض .
- عجائب القرآن ، للإمام فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، فخر الدين الرازي ، دار واسط ، بغداد .
- ابن قدامة وأثاره الأصولية ، د.عبد العزيز السعيد ، الرياض ، 1397هـ .
- القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ، محمد الصادق عرجون ، طبعة مصر 1386هـ .
- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ، محمد الصادق عرجون ، الدار السعودية ، جدة ، 1971م .
- خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، دار الشروق ، 1399هـ .
- الخصائص العامة للإسلام ، د.يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1399هـ .
- الفلسفة القرآنية ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1969م .
- تجديد التفكير الديني ، محمد إقبال ، تعريف عباس محمود محمود ، القاهرة ، 1968م .
- العقيدة في القرآن ، محمد المبارك ، دار الفكر .
- كلمة الحق في القرآن الكريم موردها ودلالاتها ، محمد الراوي ، مطابع جامعة الإمام ، الرياض 1409هـ .
- كبرى اليقينيات الكونية ، محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، 1399هـ .
- العلم يدعو للإيمان ، كريس موريسون ، ترجمة : محمد صالح الفلكي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، 1965م .
- عوامل المرونة والسعة في الشريعة الإسلامية ، د.يوسف القرضاوي ، حويله ، جامعة قطر-قطر ، 1404هـ .
- العقل المسلم والرؤية الحضارية ، د.عماد الدين خليل ، دار الحرمين ، الدوحة ، 1403هـ .
- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، د.محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، 1402هـ .
- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر ، د.زغول النجار ، قطر ، 1409هـ .
- شواهد في الإعجاز القرآني ، د.عودة أبو عودة ، دار آفاق عمان ، 1996م .
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، د.عماد الدين خليل ، كتاب الأمة ، قطر .
- التفسير الإسلامي للتاريخ ، عماد الدين خليل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1991م .
- علم نفس النمو ، حامد زهران ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1977م .
- على مشارف القرن الخامس عشر الهجري دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر ، إبراهيم ابن علي الوزير ، دار الشروق ، بيروت ، 1399هـ .
- المنهج النبوي والتغيير الحضاري ، برغوت عبد العزيز مبارك ، قطر ، 1995م .
- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة ، عمر عبيد حسنة ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض ، 1992م .
- حتى لا تكون فتنة ، عمر عبيد حسنة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1994م .
- فقه التحضر ، د. عبد المجيد عمر النجار ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999م .
- في الاجتهاد التنزيلي ، دبشير بن مولود جحيش ، وزارة الأوقاف ، قطر ، 2003م .

- ❑ سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، محمد هيشور ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1996م .
- ❑ نحن والحضارة والشهود ، د.نعمان السامرائي ، كتاب الأمة ، قطر ، 1421 هـ .
- ❑ مالك بن نبي حياته وفكره ، عبد الله بن حمد العويس ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة ، قسم الثقافة الإسلامية، الرياض ، 1404 هـ .
- ❑ السنن الربانية في التصور الإسلامي ، راشد سعيد شهوان ، رسالة دكتوراة ، كلية الشريعة ، قسم الثقافة الإسلامية ، الرياض ، 1990م .